البحث عن السعاده الأبديه

الرساله الحادية عشرة

كتاب زاد المؤمن

عبدالرحيم بن محمد الإبراهيم

البحث عن السعادة الأبدية

وعن دين الأنبياء الذي لم يحرَّف

الرسالة الحادية عشرة

كتاب
زاد المؤمن

عبدالرحيم بن محمد الإبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالله نتوكل ونستعين،

وعلى نبينا المصطفى أفضل الصلاة والتسليم

يقول الله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾

كتاب
زاد المؤمن

المقدمة

يقول ابن القيم في المدارج : «والنفوس مجبولة على وحشة التفرد ، وعلى الأنس بالرفيق ، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق ، وأنهم هم الذين ﴿**أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴿٦٩﴾﴾ (النساء) ، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له . وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه . وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط : هم الذين أنعم الله عليهم . فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له . فإنهم هم الأقلُّون قدراً ، وإن كانوا الأكثرين عدداً ، كما قال بعض السلف «عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين . وإياك وطريق الباطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين» ، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق ، واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عمن سواهم ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً . وإذا صاحوا بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم . فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك» .اهـ .

وقال :

مُتْ بداء الهوى، وإلا فخاطرْ ... واطرُقِ الحيّ والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق إذا جئت ... وكن في خِفارة الحب سائر

واصبر النفس ساعة عن سواهم ... فإذا لم تُجب لصبر فصابر

وصم اليوم. واجعل الفطر يوماً ... فيه تلقى الحبيب بالبشر شاكر

وافْطِم النفسَ عن سواه فكل ... العيش بعد الفطام نحوك صائر

وتأمل سريرة القلب واستحي ... من الله يوم تُبْلَى السرائر

واجعل الهمّ واحداً يكفك الله ... هموماً شتَّى، فربك قادر

باب ما جاء في فضل العلم بالله ودينه

قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة) . وقال الله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر) . وقال الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر) .

روى أبو داود في سننه والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم . فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**» .

وروى الترمذي في سننه ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلمي الناس الخير**» .

وروى الدارمي في سننه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال : «**ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويمسي كافراً ، إلا من أحياه الله بالعلم**» .

وروى ابن حبان عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله يبغضُ كلَّ جعظري جواظ سخَّاب بالأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة**» .

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مفتاح دار السعادة : (عن أبي أمامة الباهلي قال ذكر لرسول الله رجلان أحدهما عالم والآخر عابد ، فقال رسول الله ﷺ : «**فضل**

العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ : «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير**» .

قال ابن عباس : «علماء هذه الأمة رجلان ، فرجلاً أعطاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفداً ، ولم يشتر به ثمناً ، أولئك يصلى عليهم طير السماء ، وحيتان البحر ، ودواب الأرض ، والكرام الكاتبون ، ورجل آتاه الله علماً فضن به عن عباده ، وأخذ به صفداً ، واشترى به ثمناً ، فذلك يأتي يوم القيامة يلجم بلجام من نار» . ذكره ابن عبد البر مرفوعاً وفي رفعه نظر .

وقوله : «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلمي الناس الخير**» لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سبباً لنجاته وسعادته وفلاحه .

روى أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة**» (الحديث) .

وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن أيمن عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله يقول : «**من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا الى الجنة**» (وذكر الحديث)[١] إلى قوله ﷺ : «**وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم**» .

وهذا حديث حسن ، والطريق التي يسلكها إلى الجنة جزاء على سلوكه في الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعاً له وتوقيراً وإكراماً لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه .

---

(١) ما بين القوسين زيادة مني للتوضيح والاختصار .

قال أبو حاتم الرازي : سمعت ابن أبي أويس يقول سمعت مالك بن أنس يقول : معنى قول رسول الله تضع أجنحتها يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي .

وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له : حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري قال سمعت أحمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبي ﷺ أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث فقال : والله لأطرقن غداً نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة . ففعل ومشى في النعلين فجفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الأكلة .

وقال الطبراني سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي قال كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فأسرعنا المشي وكان معنا رجل ماجن منهم في دينه فقال : ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزيء فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط .

وفي السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال قال : قلت يا رسول الله : إني جئت أطلب العلم . قال : «مرحباً بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب» .

روى الترمذي وغيره في نسخة عمرو بن الحارث عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : «**لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة**» . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وهذه نسخة معروفة رواها الناس ، وساق أحمد في المسند أكثرها أو كثيراً منها ، ولهذا الحديث شواهد ، فجعل النبي ﷺ النهمة في العلم ، وعدم الشبع منه ، من لوازم الايمان ، وأوصاف المؤمنين ، وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ، ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم إلى متى تطلب العلم؟ فيقول : إلى الممات .

قال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث فقالوا له : إلى متى تسمع؟ قال : إلى الممات .

وقال عبد الله بن محمد البغوي : سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر .

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنت أصوغ مع أبي ببغداد ، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه ، فأخذ أبي بمجامع ثوبه ، فقال : يا أبا عبد الله : ألا تستحي ، إلى متى تعدو مع هؤلاء؟ قال : إلى الموت .

وسئل **الحسن** عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش .

إن الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم فقال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤)﴾ (السجدة) .

وقال في موضع آخر : ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** (٧٤)﴾ (الفرقان) .

أي أئمة يقتدي بنا من بعدنا فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، وهي أرفع مراتب الصديقين ، واليقين هو كمال العلم وغايته ، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين ، وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده .

وفي الترمذي وغيره ، عنه ﷺ : « **خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سمت وفقه في الدين** » .

فجعل الفقه في الدين منافياً للنفاق ، بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذي يصحبه العمل .

كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة ، قال : أتقاهم .

وسأل فرقدُ السبخي ، الحسنَ البصري عن شيء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك . فقال الحسن : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت بعينيك فقيهاً ، إنما الفقيه

الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الذي لا يهمز من فوقه ، ولا يسخر بمن دونه ، ولا يبتغي على علم علمه الله تعالى أجراً .

وقال بعض السلف : إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكر الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار بالله جهلاً .

ومن كلام بعض السلف : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه حل ، وإلا ارتحل .

وقال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به .

فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه ، وأيضاً فإن العلم يُراد للعمل ، فإنه بمنزلة الدليل للسائر ، فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته ، فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً ، لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم ، كما أن من ملك ذهباً وفضة ، وجاع وعرى ، ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس ، فهو بمنزلة الفقير العادم .

قال فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها ، لولا أن أحمل أو أجهز جيشاً في سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر ، لما أحببت البقاء» .

فالأول : الجهاد ، **والثاني** : قيام الليل ، **والثالث** : مذاكرة العلم ، فاجتمعت في الصحابة بكمالهم ، وتفرقت فيمن بعدهم

روى الخطيب أيضاً عن ابن عمر : مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة .

وروي أيضاً من حديث عبدالرحمن بن عوف «**يسير الفقه خير من كثير من العبادات**» .

وروي أيضاً من حديث أنس «فقيه أفضل عند الله من ألف عابد» .

وهو في الترمذي من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس . وروي أيضاً من حديث ابن عمر : «ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من فقه في الدين» .

وروي عن علي أنه قال : «العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله» .

وروي عن المخلص ، عن صاعد ، حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع ، حدثنا حجاج بن نصير ، حدثنا هلال بن عبدالرحمن الجعفي ، عن عطاء بن أبي ميمونة ، عن أبي هريرة ، وأبي ذر رضي الله عنهما ، أنهما قالا : باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً ، وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل ، أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً .

وقالا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : «إذا جاء الموت طالب العالم وهو على هذه الحال مات شهيداً» ورواه ابن أبي داود عن شاذان عن حجاج به .

قلت : وشاهده ما مر من حديث الترمذي ، عن أنس يرفعه : «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» .

ما رواه الخطيب أيضاً عن أبي هريرة قال : «لأن أعلم باباً من العلم في أمر أو نهي أحب إليَّ من سبعين غزوة في سبيل الله» ، وهذا إن صح ، فمعناه أحب إليَّ من سبعين غزوة بلا علم . لأن العمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه ، أو يريد علماً يتعلمه وَيُعَلِّمه فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة ، وهذا لا يحصل في الغزو المجرد .

وروي عن الحسن قال : «لأن أتعلم باباً من العلم فأعلِّمه مسلماً ، أحب إليَّ من أن يكون لي الدنيا في سبيل الله» .

قال اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : «أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد .

والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل وقد تقدم الكلام في تفضيل العالم على الشهيد وعكسه .

قال سفيان بن عيينة : «أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء .

قال محمد بن شهاب الزهري : «ما عُبِدَ الله بمثل الفقه» .

وهذا الكلام ونحوه يراد به أنه ما يُعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه في الدين ، فيكون نفس التفقه عبادة .

كما قال **معاذ بن جبل** : «عليكم بالعلم ، فإن طلبه لله عبادة» .

وروى الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة به ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يوحَّد ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وتوصل الأرحام ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً ، فيجعلهم في الخير قادة وسادة ، يقتدى بهم . أدلة في الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، والعلم حياة القلوب من العمى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، التفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء» .

هذا الأثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم في المعجم .

قال ابن مسعود : «عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه هلاك العلماء ، فوالذي نفسي بيده ، ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ، لما يرون من كرامتهم ، وإن أحداً لم يولد عالماً ، وإنما العلم بالتعلم» .

قال بعض السلف : إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله ، فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم .

قال ابن المبارك وقد سُئل : من الناس؟ قال : العلماء ، قيل : فمن الملوك؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن السفلة؟ قال : الذي يأكل بدينه .

قال بعض السلف : أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فاته من أدرك العلم .

قال أبو الدرداء : من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد ، فقد نقص في رأيه وعقله ، وشاهد هذا قول معاذ وقد تقدم .

وقال أيضاً : «العالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج لا خير فيهم» .

وروى أبوحاتم بن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «**من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه ، كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك ، كان كالناظر إلى ما ليس له**» .

وروى أيضاً في صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في حلقه فأعرض أحدهم ، واستحى الآخر ، فجلس خلفهم ، وجلس الثالث في فرجة في الحلقة ، فقال النبي ﷺ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستيحا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه .

فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلاً .

وقال كميل بن زياد النخعي : أخذ علي بن أبي طالب رضى الله عنه بيدي فأخرجني ناحية الجبَّانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد : القلوب أوعية فخيرها أوعاها . أحفظ عني ما أقول لك : الناس ثلاثة ، فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيؤوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، العلم يزكوا على الإنفاق ، وفي رواية : على العمل والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خزان

الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة» .

وقد رواه أبو أحمد بن عدي عن محمد بن سعيد بن مهران ، حدثنا شيبان أبو الربيع السمان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «لكل شيء دعامة ، ودعامة الإسلام الفقه في الدين ، والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد» .

وقال المزني : روى عن ابن عباس أنه قال : «إن الشياطين قالوا لإبليس : يا سيدنا ، ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد ، والعالم لا نصيب منه ، والعابد نصيب منه؟ قال : انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد فأتوه في عبادته فقالوا : إنا نريد أن نسألك فانصرف ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال : لا أدري ، فقال : أترونه كفر في ساعة ، ثم جاؤوا إلى عالم في حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك ، فقال : سل . فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ قال : نعم . قالوا : كيف؟ قال : يقول كن فيكون . فقال : أترون ذلك؟ لا يعدو نفسه ، وهذا يُفسد عليَّ عالماً كثيراً» .(١)

---

(١) سبحان من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . ينبغي على العبد أن يكون عالماً بالله ، مدركاً لعظمته ، ولا ينبغي له أن يعرض على عقله ما ليس هو في نطاق إدراك العقل . فإذا كان الإنسان يؤمن بهذه الروح التي هي بين جنبيه ولا يعرف ماهيتها ، ولا كيف هي ، ولا شكلها . فكيف له أن يفهم ويحيط ويعلم ما هو مختص بعلم الله عز وجل ، وقدرته وعظمته .

فلو استوقفنا إنسان وسألناه عن كيفية وجوده على ظهر هذه الأرض ، وكيف هو قائم على أرض كروية هو يجزم بحقيقة كرويتها ، وكيف هو ملامس لها برجليه لما استطاع أن يدرك ذلك ويعرف له تفسير .

وذلك أن الشرع قد أثبت كروية الأرض ، وكذا العلم ، والعقل ، والحس الذي هو مشاهد للجميع . ولو عُرج بأحدنا إلى فضاء السماء ثم نظر عن بُعد للأرض لرأى كرويتها وكيف أنها دحيت كالبيضة ، ولو رفع عينيه قليلاً ونظر إلى شمال الأرض ثم جنوبها ثم شرقها ثم غربها وهو يعلم أن أهلها يساكنونها من كل جهة ، فإنه يلزم من مساكنتهم لها على هذه الصفة وهذه الكيفية ـ بملامسة أرجلهم الأرض جميعاً ـ يلزم من ذلك ـ عند المشاهد لهم من فضاء السماء أن يكون أهل الشمال رؤوسهم إلى فوق ، وأهل الجنوب رؤوسهم إلى أسفل وأهل الشرق رؤوسهم تميل إلى الشرق ، وأهل الغرب تميل

وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وإنهم سألوا العابد فقالوا : هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه؟ فقال : لاأدري ، فقال : أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله ، وسألوا [عالم] عن ذلك فقال : هذه المسألة محال لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقاً فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل ، فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثله ، بل كان عبداً من عبيده ، وخلقاً من خلقه ، فقال : أترون ذلك؟ أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين أو كما قال .

رؤوسهم إلى تلك الجهة . هذا هو التفسير العقلي لهذا الشيء ، ولا يمكن أن يكون هناك تفسير في العقل غير ذلك ، ولكن هم في حقيقتهم جميعاً رؤوسهم إلى فوق وكل على جهته ـ والعقل عاجز عن إيجاد تفسير لذلك ، وهو مؤمن في نفس الوقت ومسلم تسليم تام بكروية الأرض . فإذا كان هذا الأمر المشاهد للجميع يعجز العقل أن يدرك له تفسير ، فكيف بما هو من خاص بعلم الله عز وجل وعلم الغيب؟ !

ولو رجعنا إلى الوراء قرن من الزمن ثم تحدثنا للناس في ذلك الوقت بأن زماننا يخاطب كل منا الآخر في المشرق والمغرب فيراه وينظر إليه في نفس اللحظة من خلال سمعيات ومرئيات وذبذبات في الهواء وأقمار اصطناعية معلقة في الفضاء تنقل لنا الصوت والصورة بأقل من جزء من الثانية ـ قس على ذلك باقي العلوم الأخرى الكثيرة من الطيران وغير ذلك ـ فإنهم مهما علموا منا الصدق وعدم الكذب ، وحاولنا أن نثبت في ذلك الدلائل العلمية ، فإنه بلا شك سوف تكون النتيجة هي التكذيب وعدم التصديق ، لأن العقل عاجز عن إدراك مثل هذه الحقائق .

فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك بعض أسرار علم الإنسان مثله (المخلوق الضعيف الذي خلقه الله وعلمه بعدما ما لم يكن يعلم) فكيف له أن يدرك ما هو من علم الله عز وجل الخلاق العظيم الجليل القدير العليم الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً؟

قال تعالى : ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق) .

وقد قال الخضر لموسى عليهما السلام : ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما يأخذ الطير من هذا البحر .

وقد وبَّخ الله تعالى الكفار بتكذيبهم للحق لعدم إحاطتهم بعلمه ، قال تعالى : ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴿٣٩﴾﴾ (يونس) .

وقال تعالى : ﴿**أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿٨٤﴾﴾ (النمل) . وقال تعالى : ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء) . ولو أنهم آمنوا وفوَّضوا تفسير تلك العلوم لفاطرهم وخالقهم ، وعلموا أنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء لجلاَّها الله تعالى لهم وأظهرها إذا شاء . كما قال تعالى : ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴿٨٨﴾﴾ (ص) .

وقال تعالى : ﴿**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴿٦٧﴾﴾ (الأنعام) .

وروى عن عبد الله بن عمرو : «فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً ، وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها» .

وهذا معناه صحيح فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه ، فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك ، فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة ، وأما العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه في خاصة نفسه وهيهات له ذلك .

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضى الله عنهم قوله : ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ (النساء : ٥٩) ، بالأمراء والعلماء ، فإنهم المجاهدون في سبيل الله ، هؤلاء بأيديهم ، وهؤلاء بألسنتهم ، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل .

قال كعب الأحبار : طالب العلم كالغادي الرايح في سبيل الله عز وجل .

وجاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد .

وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل .

وليس ممن تعلّمه ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء ، أو يصرف وجوه الناس إليه ، فإن هذا من أهل النار ، كما جاء في الحديث ، وثبته أبونعيم أيضاً قوله ﷺ : «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد رائحة الجنة**» .

قال وثبت أيضاً قوله ﷺ : «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة : عالم لم ينفعه الله بعلمه**» . فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان .

القسم الثالث : المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم ، وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها فشبه همج الناس به .

والهمج هنا مصدر ، ومعناه : سوء التدبير في أمر المعيشة ، وقولهم : همج هامج ، مثل : ليل لايل ، والرعاع من النساء الحمقى ، الذين لايعتد بهم ، وقوله : أتباع كل ناعق ، أي : من صاح بهم ودعاهم تبعوه ، سواء دعاهم إلى هدى ، أو إلى ضلال ، فإنهم لا علم لهم بالذي يدعون إليه أحق هو أم باطل ، فهم مستجيبون لدعوته ، وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان ، فإنهم الأكثرون عدداً ، الأقلون عند الله قدراً ، وهم حطب كل فتنة ، بهم توقد ويشب ضرامها ، فإنها يهتز لها أولو الدين ، ويتولاها الهمج الرعاع ، وسمى داعيهم ناعقاً تشبيهاً لهم بالأنعام التي ينعق بها الراعي ، فتذهب معه أين ذهب ، قال تعالى : ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴿١٧١﴾﴾ (البقرة) .

وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم فليس لهم نور ولا بصيره يفرقون بها بين الحق والباطل ، بل الكل عندهم سواء) انتهى كلامه رحمه الله .[١]

وقال أيضاً في مفتاح دار السعادة : (والعالم الرباني قال ابن عباس رضى الله عنهما : «هو المعلّم أخذه من التربية أي يربى الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه» .

قال سيبويه : زادوا ألفاً ونوناً في الرباني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرب تبارك وتعالى . كما قالوا شعراني ولحياني .

ومعنى قول سيبويه رحمه الله : أن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصص به نُسب إليه دون سائر من علم علماً .

قال الواحدي : فالرباني على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب ، أي : يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى .

---

(١) مفتاح دار السعادة ـ بتصرف .

قوله تعالى : ﴿**لولا ينهاهم الربانيون**﴾ ، وقوله : ﴿**كونوا ربانيين**﴾ ، قال ابن عباس : (حكماء فقهاء) .

وقال أبو رزين (فقهاء علماء) .

وقال أبو عمر الزاهد : (سألت ثعلباً عن هذا الحرف وهو الرباني فقال : سألت ابن الأعرابي فقال : إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له : هذا رباني ، فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له رباني) انتهى .

وقال أيضاً في مفتاح دار السعادة : (وفضل العلم على المال يعلم من وجوه :

أن العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الملوك والأغنياء .

أن العلم يحرس صاحبه ، وصاحب المال يحرس ماله .

أن المال تذهبه النفقات ، والعلم يزكوا على النفقة .

أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله ، والعلم يدخل معه قبره .

أن العلم حاكم على المال ، والمال لا يحكم على العلم .

أن المال يحصل للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والعلم النافع ، لا يحصل إلا للمؤمن .

أن العالم يحتاج إليه الملوك ، فمن دونهم ، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة .

أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له ، كما قال النبي ﷺ : «**تعس عبد الدينار والدرهم**» الحديث . والعلم يستعبده لربه وخالقه فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده .

أن جوهر المال من جنس جوهر البدن ، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح ، كما قال يونس بن حبيب : علمك من روحك ، ومالك من بدنك ، والفرق بين الأمرين ، كالفرق بين الروح والبدن)(١) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (بتصرف) .

باب ما جاء في قوله تعالى ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾

يقول الله تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ (الواقعة) .

ويقول الله تعالى : ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ (الذاريات) .

وقال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ (الطور) .

روى البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ ، كاد قلبي أن يطير» .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : (﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ : (أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً . . . ، وجبير بن مطعم كان قد قدم النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركاً ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك) .أهـ .

باب ما جاء في قوله تعالى:
﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدى﴾

يقول الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ (المؤمنون) . ويقول الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾ (ص) . ويقول الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)﴾ (الأنبياء) . ويقول الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ (آل عمران) . وقال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ (القيامة) .

جاء في رواية شعيب بن صفوان عن أبيه قال : (خطب عمر بن عبدالعزيز خطبة بخناصرة خطبة لم يخطبْ بعدها غيرها حتى مات رحمه الله ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : «أيها الناس إنكم لم تُخلقوا عبثاً ولم تتركوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحُرِم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلاً بكثير ، وفائتاً بباق ، لاتُرون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلّفها من بعدكم الباقون كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين ثم أنتم في كل يوم تُشيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيِّبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسَّد ولا ممهد قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، غنياً عما ترك فقيراً إلى ما قدم» .[١]

(١) «البيان والتبيين» للجاحظ .

وروى البيهقي في الدلائل عن أبي بكر الصديق في خطبة قس بن ساعدة الإيادي وهو أحد الحنفاء في عصر الجاهلية ، وكان على قرب من عهد النبوة ، وذلك عندما قدم وفد إياد على النبي ﷺ وكان فيهم الجارود . فسأل النبي ﷺ الوفد : «ما فعل قس بن ساعدة الإيادي»؟ قالوا : هلك . قال : «أما إني سمعت منه كلاماً ما أرى أني أحفظه» ، وفي رواية : فقال النبي ﷺ : «**على رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل له أَوْرَق ، وهو يتكلم بكلام مُونَق ، ما أظن أني أحفظه ، فهل منكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئاً**»؟ فوثب أبو بكر قائماً ، وقال : يا رسول الله ، إني أحفظه ، وكنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ حين خطب فأطْنَب ، ورغَّب ورهَّب ، وحذَّر وأنذر ، فقال في خطبته :

(أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا : إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مَطَر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، جميعُ وأشتات ، وآيات بعد آيات ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرَضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟ أقسم قس قسماً حقاً ، لا حانثاً فيه ولا آثماً : إن لله تعالى ديناً هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبياً قد حان حينه ، وأظلكم أوانه ، وأدرككم إبّانه ، فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه .

ثم قال : تباً لأرباب الغَفْلَة من الأمم الخالية ، والقرون الماضية . يا معشر إياد ، أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعُوّاد؟ وأين الفَرَاعنةُ الشداد؟ أين من بنى وشيَّد؟ ! وزخرف ونجَّد؟ ! وغرَّه المال والولد؟ ! أين من بغى وطغى ، وجمع فأوعى ، وقال : أنا ربكم الأعلى؟ ! ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً ، وأبعد منكم آمالاً ، وأطول منكم آجالاً؟ ! طحنهم الثرى بكلكله ، ومزَّقهم بتطاوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خالية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلاَّ ، بل هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود .

قال : ثم جلس . فقام رجل من الأنصار بعده كأنه قطعة جبل ، ذو هامة عظيمة ، وقامة جسيمة ، قد دوَّم عمامته ، وأرخى ذُؤابته ، فقال : يا سيد المرسلين ، وصفوة رب العالمين ، لقد رأيت من قس عجباً ، وشهدت منه مرغباً . فقال : وما الذي رأيته منه وحفظته عنه؟ فقال : خرجت في الجاهلية أطلب بعيراً لي شرد حتى كنت أقفوا أثره ، وأطلب خبره ، في نتائف حقائف ، ليس بها للركب مقيل ، ولا لغير الجن سبيل ، وإذا أنا بموئل مهول في طود عظيم ليس به إلا البوم ، وأدركني الليل فولجته مذعوراً لا آمن فيه حتفي ، ولا أركن إلى غير سيفي ، فبت بليل طويل ، كأنه بليل موصول ، أرقب الكوكب ، وأرمق الغيهب ، حتى إذا الليل عسعس ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول :

يـأيـهــــا الـراقـــــد في الـلـيـل الأحـم
قـــد بعـث الـله نبـــيــــاً في الحــــرم
مــن هــاشــم أهــل الــوفــــــاء والـكــرم
يـجـلـو دُجُـنـات الـديـاجـي والـبُــــــهـم

قال : فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً ، فأنشأت أقول :

يـأيـهــــا الـهـــــاتـف في داجي الـظـلـم
أهـلاً وســــهـــــلاً بـك مـن طـيـف ألـم
بــيَّــن هــداك الــلــه فــي لحــن الــكــلــم
مــــاذا الذي تدعـــو إليـــه يُغـــتـنَـمُ

قال : فإذا أنا بنحنحة ، وقائل يقول : ظهر النور ، وبطل الزور ، وبعث الله محمداً ﷺ بالحُبور ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمغْفَر ، ذو الوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطرف الأحور ، صاحب قول شهادة : أن لا إله إلا الله ، فلذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض ، أهل المذر والوبَر ، ثم أنشأ يقول :

الحـــمـــد لله الذي لم يخلق الخلق عـــبث

لم يُخْلِنا حيناً سُدى من بعد عيسى واكترث

أرسل فـــينا أحـــمـــداً خـــيـــر نبي قـــد بعث

صلى علـيـــه الله مـــا حج له ركب وحَثّ

قال : فذهلت عن البعير واكتنفني السرور ، ولاح الصباح ، واتسع الإيضاح ، فتركت المورا ، وأخذت الجبل ، فإذا أنا بالفنيق يستنشق النوق ، فملكت خطامه ، وعلوت سنامه . . . إلى قوله : فدنوت فإذا أنا بقس بن ساعدة في ظل شجرة بيده قضيب من أراك ينكت به الأرض . قال : فدنوت منه فسلمت عليه فردّ السلام ، وإذا بعين خرارة ، في أرض خوارة ، ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين يلوذان به ، ويتمسحان بأثوابه ، وإذا أحدهما يسبق صاحبه إلى الماء فتبعه الآخر وطلب الماء ، فضربه بالقضيب الذي في يده ، وقال : ارجع ، ثكلتك أمك ، حتى يشرب الذي ورد قبلك . فرجع ثم ورد بعده ، فقلت له : ما هذا القبران؟ فقال : هذان قبرا أخوين لي كانا يعبدان الله تعالى معي في هذا المكان ، لا يشركان بالله شيئاً ، فأدركهما الموت فقبرتهما ، وها أنا بين قبريهما حتى ألحق بهما ، ثم نظر إليهما فتغرغرت عيناه بالدموع ، فانكب عليهم وجعل يقول :

خـلـيـلـي هُـبـــا طالما قـــد رقـــدتما

أجـــدكـــمـــا لا تقـــضـــيـــان كـــراكـــمـــا

ألـم تـريـا أنـي بـســمـــعـــان مـــفـــرد

ومـــا لي فـــيـــهـــا من خليل ســـواكـــمـــا

مـــقـــيـم على قـــبـــريكمـــا لست بارحـــا

طوال الليـــالي أو يجـــيـب صـــداكـــمـــا

أبكيكمـــا طول الحـــيــــاة ومـــا الذي
يـردُّ علـى ذي عـــولة إن بـكـاكـــمـــــا

أمن طول نوم لا تجـــيـــبــــان داعـــيــــاً
كــأن الذي يســقي العــقــار ســقــاكــمــا

كـــأنكــمـــا والموت أقـــرب غـــاية
بـورحي في قـــبـــريكمـــا قـــد أتاكـــمــا

فـلـو جُـــعـلـت نفـس لـنفـس وقـــايـة
لجُـــدت بـنفـــسي أن تـكـون فـــداكــمــا

فقال رسول الله ﷺ : «**رحم الله قساً ، لأني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده**» .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في شفاء العليل ، وهو يتكلم عن آية الباب .

(النوع الحادي عشر : إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة ، كقوله : ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴿١١٥﴾﴾ (المؤمنون) .

وقوله : ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴿٣٦﴾﴾ (القيامة : ٣٦) .

وقوله : ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ** ﴿٣٨﴾ **مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٩﴾﴾ (الدخان) .

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله . وهو أنواع كثيرة .

ومنها : أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته .

ومنها : أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع ، ومنها أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع .

ومنها : أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرَّف في المملكة بأنواع التصرفات .

ومنها : أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً ، فيحمد على ذلك ويشكر .

ومنها : أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

ومنها : أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه .

ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي ، فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع .

ومنها : شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلهها ومعبودها .

ومنها : ظهور أثر كماله المقدس ، فإن الخلق والصنع لازم كماله ، فإنه حي قدير ، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً .

ومنها : أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة .

ومنها : أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ، ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً .

ومنها : أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم .

ومنها : كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته ، وإلهيته .

إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق . فخلق مخلوقاته بسبب الحق ، ولأجل الحق ، وخلقها متلبس بالحق ، وهو في نفسه حق ، فمصدره حق ، وغايته حق ، وهو متضمن للحق ، وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال تعالى : ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (١٩١)﴾ (آل عمران) .

وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه ، فقال : ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** (٢٧)﴾ (ص) انتهى .

باب ما جاء في التفكر وقوله عز وجل: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾

يقول الله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الروم) . وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران) . وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ (الأعراف) . وقال تعالى : ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس) . وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ (ق) . وقال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ (الطارق) . وقال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (عبس) . وقال تعالى : ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ (الغاشية) .

أخرج ابن حبان في صحيحه ، وابن أبي الدنيا ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والأصبهاني في الترغيب ، وابن عساكر عن عطاء قال : قلت لعائشة أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ . قالت : «**وأي شأنه لم يكن عجباً ، إنه أتاني ليلة فدخل**

معي في لحافي ثم قال : ذريني أتعبد لربي . فقام فتوضأ ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى . فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة . فقلت : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ، ولم لا أفعل وقد أنزل الله عليَّ هذه الليلة : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ (آل عمران) . ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» .

وروى الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها قالت :

(كان رسول الله ﷺ يصلي العتمة ثم يصلي في المسجد قبل أن يرجع إلى بيته سبع ركعات يسلم في الأربع في كل ثنتين ويوتر بثلاث ، يتشهد في الأولين من الوتر تشهده في التسليم ، ويوتر بالمعوذات ، فإذا رجع إلى بيته ركع ركعتين ، ويرقد ، فإذا انتبه من نومه قال : «الحمد لله الذي أنامني في عافية ، وأيقظني في عافية» ثم يرفع رأسه إلى السماء فيتفكر ثم يقول : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فيقرأ حتى يبلغ ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ ثم يتوضأ ، ثم يقوم فيصلي ركعتين يطيل فيهما القراءة والركوع والسجود ، يكثر فيهما الدعاء حتى إني لأرقد وأستيقظ ، ثم ينصرف فيضطجع ، فيغفي ثم ينصرف ، ثم يتكلم بمثل ما تكلم في الأولى ، ثم يقوم فيركع ركعتين هما أطول من الأولين) .

وروى أحمد في المسند : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليلة أسري بي ، لمَّا انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، قال : فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا ، نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل؟

قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب» .

وأخرج ابن أبي الدنيا في التفكر ـ عن سفيان ، قال : «من قرأ سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ويله . فعد بأصابعه عشراً . قيل للأوزاعي : ما غاية التفكر فيهن؟ قال يقرؤهن وهو يعقلهن» .

يقول نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : «يا ابن آدم الضعيف : اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلّم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد» .[١]

وقال أيضاً عليه السلام : «طوبى لمن كان قيله تذكراً ، وصمته تفكراً ، ونظره عبراً» .[٢]

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله**» .[٣]

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله) .

وأخرج أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة**» .

وأخرج الديلمي من وجه آخر مرفوعاً عن أنس : «**تفكر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة**» .

وأخرج أبو الشيخ والديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً : «**بينما رجل مستلق ينظر إلى السماء وإلى النجوم فقال : والله إني لأعلم أن لك خالقاً ورباً . اللهم اغفر لي . فنظر الله إليه فغفر له**» .

---

(١) تفسير ابن كثير ، سورة آل عمران ، آية ١٩١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه أيضاً الطبراني وابن أبي الدنيا وابن مردويه والأصبهاني في الترغيب عن ابن عمر .

وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن السدي : في قوله عز وجل : ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ . قال : «عن أن يتفكروا فيها» .

وروى أيضاً عن الوليد بن عتبة : قال : سمعت الفريابي يقول : «أمنع قلوبهم عن التفكر عن أمري» .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عامر بن عبد قيس . قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد ﷺ يقولون : «إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر» .

وأخرج ابن أبي سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن المنذر عن ابن عون قال : سألت أم الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت : «التفكر والاعتبار» .

وقال بشر بن الحارث الحافي : «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه» .

وروى أبو الشيخ عن الضحاك ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿**ومن كان في هذه أعمى**﴾ ، يقول : «من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب ، وأشباه هذا ، فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره أعمى وأضل سبيلاً ، يقول : وأبعد حجة» .

باب ما جاء في قوله تعالى:
﴿الله نور السماوات والأرض﴾

يقول الله تعالى في سورة النور : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ . وقال الله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ (الأعراف) .

روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده ، عن أبي موسى ، قال : قام فينا رسول الله بخمس كلمات ، فقال : «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» .

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «**كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمدُ لك مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مَلكُ السموات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت**» .

وروى الإمام أحمد في مسنده ، عن عبدالله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر لو

أدركت النبي ﷺ لسألته ، قال : وعما كنت تسأله؟ قال : سألته هل رأى ربه عز وجل؟ قال أبو ذر : قد سألته فقال : «**نور أنَّى أراه**» .

وروى الطبراني وابن جرير في تاريخه وابن عساكر والديلمي وغيرهم عن عبدالله بن جعفر ـ كما في حديث الطائف المشهور وإيذاء أهل الطائف له ـ قال ﷺ : «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحلَّ عليَّ غضبك ، أو تُنزل عليَّ سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**» .

قال ابن عباس رضي الله عنه : كان هذا دعاء رسول الله ﷺ في حجة الوداع عشية عرفة .

وروى الترمذي في سننه وأحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول جف القلم على علم الله**» .

وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ قال : «هادي أهل السموات والأرض ﴿**مثل نوره**﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿ **كمشكاة**﴾ ، يقول : موضع الفتيلة يقول : كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، إذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا أتاه العلم ازداد هدى على هدى ونوراً على نور» .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن ا لمنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي بن كعب ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره**﴾ قال : (هو المؤمن

الذي جعل الإيمان والقرآن في صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ ، فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبي بن كعب يقرؤها : مثل نور من آمن به فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ﴿**كمشكاة**﴾ قال : فصدر المؤمن المشكاة ﴿**فيها مصباح**﴾ والمصباح النور ، وهو القرآن ، والإيمان الذي جعل في صدره ﴿**في زجاجة**﴾ والزجاجة : قلبه ﴿**كأنها كوكب دري**﴾ فقلبه مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دري يقول : كوكب مضيء . ﴿**يوقد من شجرة مباركة**﴾ والشجرة المباركة : أصل المبارك الإخلاص لله وحده . وعبادته لا شريك له . ﴿**زيتونة لا شرقية ولا غربية**﴾ قال : فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حالة كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن قد أُجير من أن يصله شيء من الفتن ، وقد ابتلي بها فثبته الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن أعطي شكر ، وإن ابتلي صبر . فهو في سائر الناس كالرجل الحي ، يمشي بين قبور الأموات ﴿**نور على نور**﴾ فهو ينقلب في خمسة من النور .

فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . ثم ضرب مثل الكافر فقال : ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب**﴾ وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً فلا يجده ، ويدخله الله النار قال : وضرب مثلاً آخر للكافر فقال : ﴿**أو كظلمات في بحر لجي**﴾ ، فهو يتقلب في خمس من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار ، فكذلك ميت الأحياء يمشي في الناس لا يدري ماذا له وماذا عليه» .

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه» .

وقال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ في شفاء العليل : «وكذلك وصف سبحانه كتابه

ووحيه بأنه روح ، لحصول حياة القلب به ، فيكون القلب حياً ويزداد حياة بروح الوحي ، فيحصل له حياة على حياة ونور على نور ، ونور الوحي على نور الفطرة . قال : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ (غافر) .

وقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى)

فجعله روحاً لما يحصل به من الحياة ونوراً لما يحصل به من الهدى والإضاءة ، وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها ، فهو نور على نور وحياة على حياة ، ولهذا يضرب سبحانه لمن عدم ذلك مثلاً بمستوقد النار التي ذهب عنه ضوؤها ، وبصاحب الصيب الذي كان حظه منه الصواعق والظلمات والرعد والبرق ، فلا استنار بما أوقد من النار ولا حيي بما في الصيب من الماء ، ولذلك ضرب هذين المثلين في سورة الرعد لمن استجاب له فحصل على الحياة والنور ، ولمن لم يستجب له وكان حظه الموت والظلمة ، فأخبر عمن أمسك عنه نوره بأنه في الظلمة ليس له من نفسه نور ، فقال تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (النور) .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (النور) .

وفي المسند من حديث عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله خلق**

خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فذلك أقول جف القلم على علم الله» .

وقال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)**﴾ (الأنعام) .

وهذه الظلمات ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن فإن نور الإيمان في قلبه ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، وعلمه نور ، ومشيه في الناس نور ، وكلامه نور ، ومصيره إلى نور ، والكافر بالضد .

ولما كان النور من أسمائه الحسنى وصفاته كان دينه نوراً ، ورسوله نوراً ، وكلامه نوراً ، وداره نوراً يتلألأ ، والنور يتوقد في قلوب عباده المؤمنين ، ويجري على ألسنتهم ، ويظهر على وجوههم ، وكذلك لما كان الإيمان (صفته) ، واسمه المؤمن لم يعطه إلا أحب خلقه إليه . وكذلك الإحسان صفته وهو المحسن ويحب المحسنين ، وهو صابر يحب الصابرين ، شاكر يحب الشاكرين ، عفوٌّ يحب أهل العفو ، حيي يحب أهل الحياء ، ستِّير يحب أهل الستر ، قويٌّ يُحب أهل القوة من المؤمنين ، عليم يحب أهل العلم من عباده ، جواد يحب أهل الجود ، جميل يحب المتجملين ، بر يحب الأبرار ، رحيم يحب الرحماء ، عدل يحب أهل العدل ، رشيد يحب أهل الرشد»أ .هـ .

باب ما جاء في اليقين بالله عز وجل ودينه وقوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾. وقال الله تعالى حاكياً أن أنبياءه في دعوة قومهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ (إبراهيم). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (النحل). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٢٥﴾﴾ (النساء).

أخرج مسلم والبخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**بينما نحن ذات يوم عند نبي الله ﷺ إذ طلع علينا رجل، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى ـ قال يزيد ـ لا نرى ـ عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى نبي الله ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ما الإسلام؟ فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: ثم قال: أخبرني عن الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر كله خيره وشره» قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان ما الإحسان؟ ـ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم بها من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البناء»، قال: ثم انطلق، قال: فلبث ملياً،ـ**

قال يزيد : ثلاثاً ـ فقال لي رسول الله ﷺ : «يا عمر أتدري من السائل؟» قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال : «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» .

وروى الإمام البخاري في صحيحه ، عن شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» قال : «**ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة**» .

وروى أحمد في مسنده : عن أبي سلام أن رجلاً حدثه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «**بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان ، قال رجل : ما هن يا رسول الله؟ قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده ، خمس من اتقى الله بهن مستيقناً دخل الجنة : من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأيقن بالموت ، والبعث ، والحساب**» .

وروى أحمد والنسائي عن قتادة ، يحدث عن حميد بن عبدالرحمن : أن عمر قال : إن أبا بكر رضي الله عنه خطبنا فقال : إن رسول الله ﷺ قام فينا عام أول فقال : «**ألا إنه لم يقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين ، ألا إن الصدق والبر في الجنة ، ألا إن الكذب والفجور في النار**» .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين عن الحسن رضي الله عنه يرفعه : «**إن الناس لم يؤتوا في هذه الدنيا خيراً من اليقين والعافية فسلوهما الله عز وجل**» .

قال الحسن : «صدق رسول الله ﷺ باليقين طلبت الجنة ، وباليقين هرب من النار ، وباليقين أوتيت الفرائض ، وباليقين صبر على الحق ، وفي معافاة الله خير كثير ، قد والله رأيناهم يتقاربون في العافية فلما نزل البلاء تفارقوا» .

وروى أيضاً عن الحسن أنه قال : «قال لقمان لابنه : يا بني العمل لا يستطاع إلا باليقين ومن يضعف يقينه يضعف عمله ، وقال يا بني إذا جاءك الشيطان من قِبَلِ الشك والريب فاغلبه باليقين ، وإذا جاءك من قِبَلِ الكسل والسامة فاغلبه بذكر القبرِ والقيامة ، وإذا جاءك من قِبَلِ الرغبة والرهبة فأخبره أن الدنيا مفارقة متروكة» .

قال **الحسن** : «ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت» .

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة : وهذا كله من ثمرات اليقين ، فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله ، وما أعد لأوليائه ، بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ، ويعلم أنه إذا زال الحجاب رأى ذلك عياناً زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون ، ولأن له ما استوعره المترفون ، وهذه المرتبة هي أول مراتب اليقين : وهي علمه وتيقنه وهي انكشاف المعلوم للقلب ، بحيث يشاهده ولا يشك فيه . كانكشاف المرئي للبصر .

ثم يليها المرتبة الثانية : وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة : وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الادراك التام . فالأولى : كعلمك بأن في هذا الوادي ماء ، والثاني : كرؤيته ، والثالثة : كالشرب منه ، ومن هذا ما يروى في حديث حارثة وقول النبي ﷺ كيف أصبحت يا حارثة؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها . فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتعاوون فيها ، فقال : عبدٌ نوَّر اللهُ قلبه» .

فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون ، وأنس مما يستوحش منه الجاهلون ، ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف ، وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الإيمان وانفساحه وطمأنينة

القلب لأمر الله والإنابة إلى ذكر الله ومحبته والفرح بلقائه والتجافي عن دار الغرور كما في الأثر المشهور «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح ، قيل : وما علامة ذلك . قال : التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» .

وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابة عند النبي ﷺ . أهـ .

وقال أيضاً في **مدارج السالكين** :

(فصل ، ومن منازل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ «**منزلة اليقين**» .

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد وبه تفاضل العارفون وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون ، وعمل القوم إنما كان عليه وإشاراتهم كلها إليه ، وإذا تزوج الصبر باليقين : ولد بينهما حصول الإمامة في الدين قال الله تعالى وبقوله يهتدي المهتدون : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤)﴾ (السجدة) .

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين فقال وهو أصدق القائلين : ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** (٢٠)﴾ (الذاريات) .

وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال : ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (٤)﴾ (البقرة) .

وأخبر عن أهل النار : بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين فقال تعالى : ﴿**وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** (٣٢)﴾ (الجاثية) .

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً ، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم ، فامتلأ محبة لله ، وخوفاً منه ، ورضي به ، وشكراً له ، وتوكلاً عليه ، وإنابة إليه ، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها .

واختلف فيه : هل هو كسبي أو موهبي فقيل : هو العلم المستودع في القلوب يشير إلى أنه غير كسبي .

قال سهل : اليقين من زيادة الإيمان ولا ريب أن الإيمان كسبي .

والتحقيق : أنه كسبي باعتبار أسبابه موهبي باعتبار نفسه وذاته .

قال سهل : ابتداؤه المكاشفة كما قال بعض السلف «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» ثم المعاينة والمشاهدة .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم تعارضه الشكوك واليقين لا شك فيه .

وعند القوم : اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلى غير الله .

وقال ذو النون : اليقين يدعو إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة وهي تورث النظر في العواقب قال : وثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس في العشرة ، وترك المدح لهم في العطية ، والتنزه عن ذمهم عند المنع ، وثلاثة من أعلامه أيضاً : النظر إلى الله في كل شيء ، والرجوع إليه في كل أمر ، والاستعانة به في كل حال .

وقيل : اليقين هو المكاشفة وهو على ثلاثة أوجه : مكاشفة الأخبار ، ومكاشفة بإظهار القدرة ، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان .

ومراد القوم المكاشفة : ظهور الشيء للقلب ، بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين ، فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلاً ، وهذا نهاية الإيمان وهو مقام الإحسان ، وقد يريدون بها أمراً آخر : وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرد الروح عن البدن .

ومن أشار منهم إلى غير هذين : فقد غلط ولبس عليه .

وقال النهرجوري : إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة ، والرخاء عنده مصيبة .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة .

يريد بيقين الخبر : سكون القلوب إلى خبر المخبر ، وتوثقه به .

ويقين الدلالة : ما هو فوقه : وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلة الدالة على ما أخبر به ، وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن ، فإنه سبحانه مع كونه أصدق الصادقين يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره ، فيحصل لهم اليقين من الوجهين : من جهة الخبر ومن جهة الدليل .

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة : وهي يقين المكاشفة ، بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم ، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب : كنسبة المرئي إلى العين ، وهذا أعلى أنواع المكاشفة . وهي التي أشار إليها عامر بن عبدقيس في قوله : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» . وليس هذا من كلام رسول الله ولا من قول عليّ كما يظنه من لا علم له بالمنقولات .

وقال بعضهم : رأيت الجنة والنار حقيقة ، قيل له : كيف؟

قال : رأيتهما بعيني رسول الله ، ورؤيتي لهما بعينيه : آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني ، فإن بصري قد يطغى ويزيغ بخلاف بصره .

واليقين يحمله على الأهوال وركوب الأخطار ، وهو يأمر بالتقدم دائماً فإن لم يقارنه العلم : حمل على المعاطب .

والعلم يأمر بالتأخر والإحجام فإن لم يصحبه اليقين قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم والله أعلم) انتهى .

باب ما جاء في قعود الشيطان لابن آدم في طريق الإيمان وقوله ﷺ: «إن الشيطان قَعَدَ لابن آدم بأطرقه»

يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾ (الأعراف).

ويقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ (الأعراف). وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)﴾ (النساء).

وقال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)﴾ (الصفات).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ (فاطر).

وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠)﴾ (النساء).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ (الأعراف).

روى البخاري عن صفية بنت حيي زوج النبي قالت : كان رسول الله ﷺ **معتكفاً ، فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معي ليقلبني ، وكان سكنها في دار أسامة بن زيد ـ فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ : «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً»** .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والطبراني في الدعاء وابن أبي الدنيا في التوبة ، وغيرهم عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسي التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس»** .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر عن عروة بن رويم ، قال : «إن عيسى ابن مريم عليه السلام سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلّى له فإذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه فمنّاه وحدّثه» .(١)

---

(١) قلت : لقد وصف الله عز وجل النجوم بالخنس كما في قوله تعالى : **﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾** (التكوير) .

وذلك إذا أتاها نور الشمس وضوؤها فإنها تبقى في مكانها خانسة لا ترى حتى يذهب ذلك النور فتظهر حينئذ وتبدو للرائي .

وذلك مثل قلب العبد المؤمن إذا تجلى عليه ذكر الله والتفكر ، فإن أعظم الذكر الصلاة . قال تعالى : **﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾** (طه) .

والصلاة نور كما قال ﷺ : «الصلاة نور ، والصدقة برهان» رواه مسلم .

وكذلك ذكر الله تعالى على كل حال هو نور للذاكر كما في قوله ﷺ لأبي ذر «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض» رواه البيهقي .

وهذا الذكر وهذا النور إذا تجلى على القلب خنس الشيطان منه وضعف كما تخنس النجوم إذا تجلى لها نور الشمس ، ولا تزال خانسة ما دام ضوء الشمس متجلياً ، ولا يزال الشيطان خانس مادام العبد على كل حال ذاكراً لله ، معظماً له سبحانه قريباً منه . وقد ورد في الأثر الذي يرويه أحمد عن أبي تميمة

وروى ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : «الوسواس الخناس» قال : (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإن سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس» .

وأخرج ابن شاهين عن أنس يرفعه للنبي ﷺ أنه قال : «**إن للوسواس خطماً كخطم الطائر فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس ، فإن ابن آدم ذكر الله نكص وخنس فلذلك سمي «الوسواس الخناس»**) .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : «ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، أما الكافر ، فيأكل معه من طعامه ويشرب معه من شرابه وينام معه على فراشه ، وأما المؤمن ، فهو بجانب له ، ينتظره حتى يصيب منه غفلة ، أو غرة ، فيثب عليه ، وأحب الآدميين إلى الشيطان ، الأكول النؤوم» .

وروى أحمد ومسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قال : وإياك يا رسول الله؟ قال : «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق»** (رواه مسلم أيضاً مختصراً) .

وفي رواية أحمد : «**وقرينه من الشيطان**» .

وروى مسلم في صحيحه **عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله خرج من عندها ليلاً قالت فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : «ما لك؟ يا عائشة أغرت»؟ فقلت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ : «أقد جاءك شيطانك؟» قالت : يا رسول الله! أو معي شيطان؟ قال : «نعم» قلت : ومع كل إنسان؟ قال : «نعم» . قلت : ومعك؟ يا رسول الله ، قال : «نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم»** .

يحدث عن رديف النبي ﷺ ، قال عثر النبي ﷺ حماره فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : «لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إن قلت تعس الشيطان تعاظم وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب» .

وروى الترمذي في سننه والنسائي وابن حبان عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ الآية» .

وروى أحمد في مسنده ، عن سبرة بن أبي فاكه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ، وآباء أبيك؟» قال : «فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول»؟ قال : «فعصاه فهاجر» ، قال : «ثُمَّ قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال» ، قال : فعصاه فجاهد» فقال رسول الله ﷺ : «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» .

وروى أحمد أيضاً في مسنده عن عبدالله بن عمر يقول : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات ، حين يصبح وحين يُمسي : «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي ، قال : يعني : «الخسف» .

وروى ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف) .

(يقول : أشككهم في آخرتهم ، ومن خلفهم أرغبهم في دنياهم ، وعن أيمانهم أشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي) .

وروى أيضاً في تفسيره عن قتادة، قوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية، قال: «أتاهم من بين أيديهم: فأخبرهم أنه لا بعث ولاجنة ولا نار، ومن خلفهم: من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم: من قبل حسناتهم بطّأهم عنها، وعن شمائلهم: زيّن لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله».

وروى أيضاً عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾، و«لم يقل: ﴿من فوقهم﴾ لأن الرحمة تنزل من فوقهم».

وروى أيضاً عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. قال ابن عباس: أي: موحدين.

يقول ابن القيم كما في بدائع الفوائد: «ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات، والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته، ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة النار من كل ألف وتسعة وتسعين، ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض وقصد أن تكون الدعوة له وأن يعبد من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض.

ويكفي من شره أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله تعالى كيده عليه وجعل النار على خليله برداً وسلاماً، وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده وصان المسيح ورفعه إليه، وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى

أنه ربهم الأعلى ، وتصدى للنبي صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده ، والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً ، وتفلت على النبي صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول ألعنك بلعنة الله ، وأعان اليهود على سحرهم للنبي صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته ، ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه ، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فلا يزال به حتى يناله منه ، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره ، واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه ، فإذا يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى (المرتبة الثانية) .

المرتبة الثانية من الشر : وهي مرتبة البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعا إلى خلاف ما جاؤوا به ، وهي باب الكفر والشرك ، فإذا نال منه وجعله من أهلها بقي أيضا نائبه وداعياً من دعاته ، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى (المرتبة الثالثة) .

المرتبة الثالثة من الشر : وهي الكبائر على اختلاف أنواعها ، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر ، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم

إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه ، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به ، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء ، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات ، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم ، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس ، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى (المرتبة الرابعة) .

المرتبة الرابعة : وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبي ﷺ : «**إياكم ومحقرات الذنوب ، كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى انضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بهاصاحبها تهلكه**» رواه أحمد

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى (المرتبة الخامسة) .

المرتبة الخامسة : وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى (المرتبة السادسة) .

المرتبة السادسة : وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه وقل من يتنبه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير ويرى أن هذا خير فيقول هذا الداعي من الله وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيرا أعظم من تلك السبعين بابا

وأجل وأفضل ، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده .

فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ولا يفتر ولا يني ، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله .

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال ، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعاً لمن تدبره ووعاه) انتهى كلامه رحمه الله .

باب قوله تعالى في الحديث القدسي «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»(١)

يقول الله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (الروم) . وقال الله تعالى : ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)﴾ (النساء) .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة ، بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم قال : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (الروم) .

وفي رواية : «أو يشركانه» .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : وقوله : ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ .

---

(١) «وإني خلقت عبادي حنفاء» الحنيف : هو المائل عمَّا تطبَّع عليه الناس من الشرك والضلالة . قال ابن منظور في لسان العرب : ومعنى الحنيفية في اللغة الميل ، المعنى أن إبراهيم حَنَفَ إلى دين الله ودين الإسلام ، وإنما أخذ الحنف من قوله رجُلٌ أحنف ورِجْلٌ حنفاء وهو الذي تميل قدمها كل واحدة إلى أختها بأصابعها .

قال الزجاجي : الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن ، فلما جاء الإسلام كان الحنيف المسلم ، وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك . أ .هـ .

قال تعالى : ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ (الحج) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ (البينة) .

قال ابن عباس : «يريد دين الله» . وهو قول إبراهيم ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وسعيد بن المسيّب ، وسعيد بن جُبير .

ومعنى ذلك : هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة ، وهي ملّة الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)**﴾ (الروم) .

ولهذا قال ﷺ : «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، فهل تحسون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها**» . ثم قرأ أبو هريرة : ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (الروم : ٣٠) الآية ، متفق عليه .

فجمع النبي ﷺ بين الأمرين : تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير ، وتغيير الخلقة بالجدع ، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما ، فغير فطرة الله بالكفر ، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها ، وغير الصورة بالجدع والبتك ، فغيروا الفطرة إلى الشرك ، والخلقة إلى البتك والقطع ، فهذا تغيير خلقة الروح ، وهذا تغيير خلقة الصورة) .

وقال : (فالخلق مفطورون على معرفته وتوحيده فلو خلوا وهذه الفطرة لنشأوا على معرفته وعبادته وحده ، وهذه الفطرة أمر خلقي خلقوا عليه ولا تبديل لخلقه فمضى الناس على هذه الفطرة قروناً عديدة ثم عرض لها موجب فسادها وخروجها عن الصحة والاستقامة بمنزلة ما يعرض للبدن الصحيح والطبيعة الصحيحة مما يوجب خروجهما عن الصحة إلى الانحراف ، فأرسل رسله ترد الناس إلى فطرتهم الأولى التي فطروا عليها ، فانقسم الناس معهم ثلاثة أقسام :

منهم من استجاب لهم كل الاستجابة وانقاد إليهم كل الانقياد فرجعت فطرته إلى ما كانت عليه ، مع ما حصل لها من الكمال والتمام في قوتي العلم النافع والعمل

الصالح ، فازدادت فطرتهم كمالا إلى كمالها ، فهؤلاء لا يحتاجون في المعاد إلى تهذيب وتأديب ونار تذيب فضلاتهم الخبيثة وتطهرهم من الأدران والأوساخ ، فإن انقيادهم للرسل أزال عنهم ذلك كله .

وقسم استجابوا لهم من وجه دون وجه ، فبقيت عليهم بقية من الأدران والأوساخ التي تنافي الحق الذي خلقوا له ، فهيأ لهم العليم الحكيم من الأدوية الابتلاء والامتحان بحسب تلك الأدواء التي قامت بهم ، فإن وفت بالخلاص منها في هذه الدار وإلا ففي البرزخ ، فإن وَفَّى بالخلاص ، وإلا ففي موقف القيامة وأهوالها ما يخلصهم من تلك البقية ، فإن وَفَّى بها وإلا فلا بد من المداواة بالدواء الأعظم وآخر الطب الكي فيدخلون كير التمحيص والتخليص حتى إذا هذبوا ولم يبق للدواء فائدة أخرجوا من مارستان المرضى إلى دار أهل العافية كما دل على ذلك السنة المتواترة عن النبي ﷺ وصرح به في قوله : «حتى إذا هُـذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة» وكذلك قوله تعالى : ﴿**طبتم فادخلوها خالدين**﴾ .

فلم يأذن لهم في دخولها إلا بعد طيبهم فإنها دار الطيبين فليس فيها شيء من الخبث أصلاً ، ولهذا يلبث هؤلاء في النار على قدر حاجتهم إلى التطهر وزوال الخبث .

القسم الثالث قوم لم يستجيبوا للرسل ولا انقادوا لهم ، بل استمروا على الخروج عن الفطرة ولم يرجعوا إليها ، واستحكم فسادها فيهم أتم استحكام لا يرجى لهم صلاح ، فهؤلاء لا يفي مجيء الدنيا ومصائب الموت وما بعده وأهوال القيامة بزوال أوساخهم وأدرانهم ، ولا يليق بحكمة العليم الحكيم أن يجاور بهم الطيبين في دارهم ، ولم يخلقوا للفناء فهؤلاء أهل دار الابتلاء والامتحان باقون فيها ببقاء ما معهم من درن الكفر والشرك ، والنار إنما أوقدت عليهم بأعمالهم الخبيثة . فعذابهم بنفس أعمالهم التي لهم منها صور من العذاب تناسبها وتشاكلها ، فالعذاب باق عليهم ما بقيت حقائق تلك الأعمال وما تولد منها ، فما دامت موجبات العذاب باقية فالعذاب باق) . انتهى

باب من جاء في تعظيم الله عز وجل

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ (الحاقة) . ويقول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزمر) . ويقول الله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ (نوح) .

روى أحمد في مسنده **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها أدخلته جهنم»** .

وروى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : **«جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزمر)** .

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ (نوح) ، قال ابن عباس : «ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته» .

وروى أيضاً عن السدي في قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الزمر : ٦٧) ، قال السدي : «ما عظموا الله حق عظمته» .

وروى أيضاً في تفسيره عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الشورى) ، قال ابن عباس : (يعني من ثقل الرحمن وعظمته تبارك وتعالى) .

وروى أيضاً عن قتادة ﴿يتفطَّرْنَ من فَوْقِهِنَّ﴾ : (أي من عظمة الله وجلاله) .

وروى أيضاً عن الضحاك : ﴿يَتَفَطَّرْنَ من فَوْقِهِنَّ﴾ يقول : (يتصدَّعن من عظمة الله) .

وروى أيضاً عن ابن عباس في قول الله سبحانه : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ، قال : (الملائكة يسبحون له من عظمته) .

وروى أبو داود وابن حبان عن عبدالله بن مسعود قال : **قال رسول الله ﷺ : «إذا تكلم الله تعالى بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم ، قال فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك فيقول : الحق ، فيقولون : الحق الحق»** .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن نبي الله ﷺ قال : «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾** (سبأ) ، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفّه فحرَّفها وبدَّدَ بين أصابعه ـ فيسمعُ الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربّما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء» .(١)

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ **فيما روى عن**

(١) قلت : وليس هذا من علم الغيب ، لأن الغيب المطلق لا يعلمه إلا الله عز وجل : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾ (النمل) .

ولكن لما كان ما تكلّم الله تعالى به من الوحي فسمعته الملائكة فتحدثت به في السماء ، وعلمه أهل السماء ، أصبح هذا المعلوم غيب نسبي وليس بغيب مطلق ، فإن الغيب المطلق لا يعلمه لا أهل السماء ولا أهل الأرض ، وأما الغيب النسبي : فهو بالنسبة لأهل السماء قد يكون معلوماً وبالنسبة لأهل الأرض فهو يغيب عنهم ليس بمعلوم .

الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثمَّ أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» .

قال سعيد : كان أبوإدريس الخولاني ، إذا حدث بهذا الحديث ، جفا على ركبتيه .

وروى ابن جرير في تفسيره ، قال : حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله : ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾ قال ابن زيد : فحدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**» قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**» .

فالشياطين ـ كما جاء في الحديث ـ تأتي لتسترق السمع وتسمع ما يتحدث به أهل السماء ـ من أمر سيحدث مثلاً ـ لتخطف تلك الخطفة فتلقي بها على لسان الكاهن ويكذب معها مائة كذبة وتنقرها في أذنه ، فيتكلم بها فيفتتن به الناس بظنهم أنه قد علم شيئاً من علم الغيب ، وهو ليس بغيب أصلاً ، وهذا كله من باب الفتنة التي أرادها الله عز وجل أن تكون كما في قوله سبحانه : ﴿**الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)**﴾ (العنكبوت) .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال : «يا أبا ذر ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» .

وروى الترمذي في سننه وأحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً**» .

قال المناوي في فيض القدير : («**أطَّت السماء**» صاحت وأنَّتْ وصوتت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة الساجدين فيها منهم ، من الأطيط وهو صوت الرجل والإبل من حمل أثقالها . . . «**وحق لها أن تئط**» أي صوتت وحق لها أن تصوت ، لأن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطَّت)أهـ .

وأخرج أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة عن أبي رحزة يزيد بن عبيد الساعي قال : لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أتاه وفد من بني فزارة ، فقالوا : يا رسول الله ادع ربك أن يغنينا ، واشفع لنا إلى ربك ، وليشفع ربك إليك ، فقال رسول الله ﷺ : «**ويلك هذا أنا شفعت إلى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه ، لا إله إلا هو العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرجل الحديد**» .

وأخرج ابن أبي الدنيا قال : حدثني محمد ، قال : حدثنا روح بن عبادة ، قال : حدثنا عبادة بن منصور ، قال : سمعت عدي بن أرطأة ، يخطبنا على منبر المدائن ، فجعل يعظنا حتى بكى وأبكى ، فقال : «كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه : يا بني أوصيك أن لا تصلي صلاة إلا ظننت أنك لا تصلي بعدها غيرها حتى تموت ، وتعال بني حتى نعمل عمل رجلين كأنهما قد أوقفا على النار ثم سألا الكرة ، ولقد سمعت فلاناً ـ نسي عباد اسمه ـ ما بيني وبين رسول الله غيره ، قال : إن رسول الله ﷺ قال : «**إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك تقطر دمعة من عينه إلا وقعت**

على ملك يسبح قال : وملائكة سجود منذ خلق الله السموات والأرض ، لم يرفعوا رؤوسهم ، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ، ولا ينصرفون إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة تجلى لهم ربهم ، فنظروا إليه تبارك وتعالى ، فقالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك» .

وروى الديلمي عن ابن عمر : «إن لله تعالى ملائكة في السماء الدنيا خشوعاً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، فإذا كان يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، ولله تعالى ملائكة في السماء الثانية ركوعاً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون : سبحان ذي العزة والجبروت ، فإذا كان يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، ولله تعالى ملائكة في السماء الثالثة سجوداً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون : سبحان الحي الذي لا يموت فإذا كان يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» .

باب ما جاء في إخلاص الدين لله عز وجل(١)

يقول الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ (البينة) . وقال الله تعالى : ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٥﴾ (غافر) . وقال الله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ (الأعراف) . وقال الله تعالى عن إبليس لعنه الله : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ (ص) . وقال الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ (يوسف) . وقال الله تعالى : ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ (الصافات) . وقال الله تعالى : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ (الصافات) . وقال الله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾ (الصافات) . وقال الله تعالى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ (الصافات) . وقال الله تعالى : ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩﴾ (الصافات) .

روى ابن ماجه في سننه والبيهقي والحاكم وصححه عن أنس بن مالك ، قال : قال

---

(١) إخلاص الدين لله : هو أن يخلص العبد عبادته كلها لله عز وجل ، ويجعل عمله كله خالصاً لوجهه سبحانه .

ففي اللغة : خلص الشيء : إذا سلم ونجا وصفا من مخالطة ما يشوبه ويعكر صفوه .

والمخلص لله الدين : من خلصت عبادته لله وسلمت من شوائب الشرك وأدرانه .

وأما معنى الدين في اللغة : فهو من الاستعباد والطاعة . فقول المسلم : «أدين لله» بالإسلام ، والتوحيد الخالص : أي «أتعبد لله» بالاستسلام له وحده وإفراده بالعبادة ، فالتدين للمعبود : أي التعبد له وطاعته .

وأما العبادة في اللغة : فهي من الذل . يقال بعير معبَّد : أي مذلل ، وطريق معبَّد : إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام .

والعبادة في الشرع : هي غاية الذل والخضوع لله تعالى وأوامره مع غاية المحبة له .

رسول الله ﷺ : «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راض**». قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء.

وروى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**».

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشِركَهُ**».

وروى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

وروى النسائي في سننه عن أبي أمامه الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه**».

وروى أحمد في مسنده عن زيد بن ثابت أنه خرج من عند مروان نحواً من نصف النهار، فقلنا ما بعث إليه الساعة إلا لشيء سأله عنه فقمت إليه فسألته. فقال: أجل سألنا عن أشياء سمعتها من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نضر الله أمراً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيا من ورائهم، وقال: من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له**».

وروى أحمد أيضاً ـ مختصراً عن أنس بلفظ: «**ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**».

وروى النسائي عن طلحة بن مصرف عن مصعب بن سعد عن أبيه ، أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي ﷺ فقال نبي الله ﷺ : «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**» .

وروى أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان . . .**» .

وروى أبوداود في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» يعني ريحها .

وروى ابن أبي الدنيا عن كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال : «**من طلب العلم ليجاري به العلماء أو يماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**» .

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : (حدثني رسول الله ﷺ أن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال بلى يا رب . قال : فماذا عملت فيما علمت؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وأناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارئ ، فقد قيل ذاك . ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال بلى يا رب . قال : فماذا عملت فيما أتيتك؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة له كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذاك ، ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله فيقول الله له : فلماذا قُتلت؟ فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله له كذبت ، وتقول له الملائكة كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جريء ، فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله على ركبتي فقال يا أبا هريرة : «أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» .

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خرج ثلاثة نفر يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا في جبل، فانحطت عليهم صخرة. قال: فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه. فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت أخرج فأرعى، ثم أجيء فأحلب، فأجيء بالحلاب فآتي به أبويَّ فيشربان، ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي، فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان قال: فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء. قال: ففرج عنهم. وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني كنتُ أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة. قال ففرج عنهم الثلثين. وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيراً بفرق من ذرة، فأعطيته وأبى ذاك أن يأخذ، فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً وراعيها، ثم جاء فقال: يا عبدالله أعطني حقي، فقلت: انطلق إلى البقر وراعيها فإنها لك، فقال: أتستهزئ بي، قال: فقلت: ما أستهزئ بك، ولكنها لك. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فكشف عنهم».

وروى الطبراني والبيهقي عن أنس رضي الله عنه فيما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان آخر الزمن صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس، فيقول الله عز وجل للمخلصين اذهبوا بهم إلى الجنة، ويقول للآخرين امضوا بهم إلى النار».

وروى أبوالقاسم القشيري في الرسالة عن الحسن مرسلاً يرفعه للنبي ﷺ أنه سأل جبريل عن الإخلاص ما هو؟ فقال سألت رب العزة فقال: «الإخلاص سر من أسراري أودعته قلب من أحببت من عبادي».

وقال الجنيد : (الإخلاص سر بين العبد وبين الله ، لا يعلمه مَلَكٌ فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله) .

وقال الفضيل : (ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما) .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي ثمامة قال : (قال الحواريون : يا عيسى ما الإخلاص لله؟ قال : أن يعمل الرجل العمل لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس ، والمناصح لله الذي يبدأ بحق الله قبل حق الناس ، يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا عرض أمران : أحدهما للدنيا ، والآخر للآخرة ، بدأ بأمر الآخرة قبل أمر الدنيا) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان قال : **أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمي سمعت بن الفرخي** يقول : (الإخلاص فيه ثلاثة أقاويل : أحدها : صدق القلب في طلب الثواب ، والثاني : إرادة إخراج العمل من كل شبهة ، والثالث : لا يحب حمد المخلوقين ولا ذمهم) .

وروى ابن عساكر في تاريخه عن سعيد عثمان الخياط يقول : سمعت ذا النون يقول : (إذا لم يكن في عملك حب حمد المخلوقين ولا مخافة ذمهم ، فأنت حكيم مخلص إن شاء الله) .

وروى البيهقي في شعبه عن الحناط . قال : سمعت ذا النون يقول : (لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة ، لأنه إذا خلا لم ير غير الله ، وإذا لم ير غير الله لم يحركه إلا حكم الله ، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق لفظهما سواء) .

وروي أيضاً في شعبه عن ذي النون أنه قال : (اعلموا أنه لا يصفو لعامل عمل إلا بإخراج الخلق من القلب في عمله وهو الإخلاص ، فمن أخلص لله لم يرج غير الله ، فكن وكن على علم أنه لا قبول لعمل يراد به غير الله ، فمن أراد طريق التجريد إلى الإخلاص فلا يدخلن في إرادته أحد سوى الله عز وجل ، شمر عن ساقك واحذر

حذر الرجل أن يدخل في العظمة لله تعظيم غير الله ، واجعل الغالب على قلبك ذلك ، وقد صفا قلبك بالإخلاص) .

وروى أيضاً عن شعبه عن الجريري يقول : سمعت سهلاً يقول : (نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن يكون حركاته وسكوته في سره وعلانيته لله وحده لا شريك له لا يمازجه شيء نفس ولا هوى ولا دنيا) .

وقيل لسهل : أي شيء أشد على النفس؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب .

وروى أيضاً عن سعيد بن إسماعيل يقول : (صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق ، والإخلاص أن تريد بقلبك وبعملك وعلمك وفعلك رضا الله تعالى خوفاً من سخط الله كأنك تراه بحقيقة علمك بأنه يراك حتى يذهب الرياء عن قلبك ، ثم تذكر منة الله عليك إذا وفقك لذلك العمل حتى يذهب العجب من قلبك ، وتستعمل الرفق في عملك حتى تذهب العجلة من قلبك ، **وقال رسول الله ﷺ : «ما جعل الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه»**) .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : (وقال في سورة النحل : ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)**﴾ (النحل) .

فتضمن ذلك أمرين :

أحدهما : نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص .

والثاني : إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه .

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال : ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)**﴾ (ص) .

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه

وإضلاله ، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله ، فهؤلاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم) .

وقال أيضاً : (فالإخلاص : هو سبيل الخلاص ، والإسلام : هو مركب السلامة ، والإيمان : خاتم الأمان) .

وقال أيضاً : (قال تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ②﴾ (الملك) .

قال الفضيل بن عياض : هو أخلص العمل وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا وصوابا ، فالخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، وقد قال تعالى : ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ⑪⓪﴾ .

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه ، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ ، مراداً به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم ، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول ﷺ لم يمكنه قصده ، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده ، فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً ، فالعلم هو الدليل على الإخلاص ، وهو الدليل على المتابعة)أهـ .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ في **إغاثة اللهفان** : «وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبته بعشق الصور أشد ، وكلما كان أكثر إخلاصاً وأشد توحيداً ، كان أبعد من عشق الصور ، ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق ، لشركها ، ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام بإخلاصه ، قال تعالى : ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ②④﴾ (يوسف) ، فالسوء : العشق ، والفحشاء : الزنا .

فالمخلص قد خلص حبه لله ، فخلّصه الله من فتنة عشق الصور ، والمشرك قلبه متعلق بغير الله ، لم يخلص توحيده وحبه لله عز وجل) .أهـ .

باب ماجاء في التوكل على الله عز وجل(١)

قال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ (الفرقان) . وقال تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس) . وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (هود) . وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (النحل) . وقال تعالى : ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (إبراهيم) . وقال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ (الطلاق) .

روى مسلم في صحيحه عن عمران بن الحصين : أن رسول الله ﷺ قال : «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب**» قالوا : من هم يا رسول الله؟ قال : «**هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون**» .

روى الترمذي في سننه عن عمر رضي الله عن قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه قال : «**حسبنا الله ونعم**

(١) التوكل على الله : هو تفويض الأمر إلى الله تعالى ، والثقة به ، وصدق الاعتماد عليه ، مع الإتيان بالأسباب .

والتوكل في اللغة من جهة (المتوكِّل) : هو الاعتماد على الغير وتسليم الأمر إليه . ومن جهة (المتوكل عليه) : هو التكفل بالأمر ، وضمان القيام به .

(الوكيل) من أسماء الله تعالى : وهو الكفيل الذي تكفل بأرزاق خلقه .

وقيل أيضاً (الوكيل) هو : الحافظ الكافي .

وفي قولنا : حسبنا الله ونعم الوكيل : أي كافينا الله ونعم الكافي .

الوكيل : قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» .

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن وهب قال : يقول الرب تبارك وتعالى : «إذا توكل على عبدي ، لو كادته السماوات والأرض ، جعلت له من بين ذلك المخرج» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر في تاريخه عن يعقوب بن إسحاق قال :سمعت أحمد بن حنبل ـ وسئل عن التوكل ـ فقال : (قطعُ الاستشراف باليأس من الخلق ، قيل له : فما الحجة فيه قال : قول إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق ثم طرح في النار ، اعترض له جبريل عليه السلام فقال : هل من حاجة فقال : أما إليك فلا ، قال : فسل من لك إليه الحاجة ، فقال : أحب الأمرين إليَّ أحبهما إليه) .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن سعيد بن جبير قال : (التوكل على الله جماع الإيمان) .

وروى ابن أبي الدنيا ، قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه ، فقال : علمني شيئاً ينفعني الله به . قال : (أكثر من ذكر الموت ، واقصر أملك ، وخصلة ثالثة ، إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة ، قال : ما هي؟ قال : التوكل) .

وروى أيضاً : عن أبي العالية ، قال : اجتمع إليَّ أصحاب محمد ﷺ ، فقالوا : (يا أبا العالية ، لا تعمل عملاً تريد به غير الله ، فيجعل الله ثوابك على ما أردت ، قال : واجتمع إليَّ أصحاب محمد ﷺ ، فقالوا : يا أبا العالية ، لا تتكلن على غير الله ، فيكلك الله إلى من اتكلت عليه) .

وروى أيضاً عن إبراهيم بن زكريا القرشي ، قال : سمعت هداباً البصري ، يقول : قال لي قائل في منامي : (يا هداب : توكل على من توكل عليه المتوكلون قبلك ، فإنه جل ثناؤه لا يكل متوكلاً عليه إلى غيره) .

وروى أيضاً عن أبو قدامه الرملي ، قال : قرأ رجل هذه الآية : **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾** ، فأقبل على سليمان

الخواص ، فقال : (يا أبا قدامة : ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله في أمره . ثم قال : انظر كيف قال الله تبارك وتعالى : **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾** ، فأعلمك أنه لا يموت ، وأن جميع خلقه يموتون ، ثم أمرك بعبادته ، فقال : **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾** ، ثم أخبرك بأنه خبير بصير . ثم قال : والله يا أبا قدامة لو عامل عبدٌ الله بحسن التوكل ، وصدق النية له بطاعته ، لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم ، فكيف يكون هذا محتاجاً وموئله وملجؤه إلى الغني الحميد؟) .

وروى أيضاً عن محمد بن يحيى . قال : جاء رجل من العبَّاد إلى عالم . فقال : (إن أريد أن أخرج إلى مكة . أفأخرج وأتوكل؟ قال : لو أردت أن تتوكل لخرجت ولم تسألني) .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن سعيد بن المسيب (أن سليمان وعبدالله بن سلام التقيا ، فقال أحدهما لصاحبه : إن لقيت ربك فأخبرني ماذا لقيت منه؟ وإن لقيته قبلك فأخبرتك ، فتوفي أحدهما فلقيه صاحبه في المنام فقال : توكل وأبشر ، فإني لم أر مثل التوكل قط ، قالها ثلاث مرات) .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن أبي مليكة ، قال : (كان ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال : فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه ، قال : فقالوا له أفلا أمرتنا نناولكه؟ فقال : إن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً) .

وروى الطبراني وابن أبي شيبة عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «**أوصاني خليلي بسبع : بحب المساكين وأن أدنوا منهم ، وأن أنظر إلى من هو أسفل مني ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأن أصل رحمي وإن جفاني ، وأن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن أتكلم بمر الحق ، ولا يأخذني في الله لومة لائم ، وأن لا أسأل الناس شيئاً**» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن يحيى الأزدي يقول : سمعت عبدالله بن داود الخريبي وسئل عن التوكل فقال : (أرى التوكل حسن الظن بالله عز وجل) .

وروى ابن أبي الدنيا فقال : حدثنا عبدالله قال : قال محمد بن الحسين : حدثني منبوذ أبوهمام ، حدثني أبو معبد ـ رجل من أهل البحرين ـ قال : قال لي عابد كان بالبحرين يوماً : (بحسبك من التوكل عليه أن يعلم من قلبك حسن توكلك عليه ، وكم من عبد من عباده قد فوض إليه أمره ، فكفاه منه ما أهمه ، ثم قرأ : ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴿٢﴾ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴿٣﴾﴾ (الطلاق) .) .

وروى ابن أبي الدنيا ، قال أبو بكر وبلغني عن بعض الحكماء ، قال : (التوكل على ثلاث درجات : أولاها : ترك الشكاية ، والثانية : الرضا ، والثالثة : المحبة .

فترك الشكاية : درجة الصبر .

والرضا : سكون القلب بما قسم الله له ، وهي أرفع من الأولى .

والمحبة : أن يكون حبه لما يصنع الله به .

فالأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين) .

وروى البيهقي عن الحسن : (أنه سئل عن التوكل فقال : الرضا عن الله عز وجل) .

وروى أيضاً عن محمد بن عبدالله بن شاذان ، يقول سمعت أبا بكر الواسطي وسئل عن ماهية التوكل قال : (الصبر على طوارق المحن ، ثم التفويض ، ثم التسليم ، ثم الرضا ، ثم الثقة ، وأما صدق التوكل : فهو صدق الفاقة ، والافتقار ، يعني إلى الله عز وجل) .

وروى الخلاَّل عن أبي بكر المروذي ، قال : قيل لأبي عبدالله : (أي شيء صدق التوكل على الله عز وجل؟ فقال : أن يتوكل على الله ، ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيئه ، وإذا كان كذلك كان الله يرزقه ، وكان متوكلاً) .

وروى البيهقي عن عبدالله بن محمد بن أبي شيبة ، قال الشيخ الإمام أحمد رحمه الله تعالى : (التوكل طمأنينة القلب وسكونه إلى موعود الله تعالى ، وذلك لا يمنع

الكسب من الحلال ، فيكتسب بظاهر العمل ، معتمد بقلبه على الله تعالى لا على كسبه ، لعلمه بأن لا حول ولا قوة إلا بالله) .

وكذا قال أبو الحسن علي بن أحمد البوشنجي ، فيما أخبرنا أبو عبدالله الحافظ ، عنه (التوكل التبرئة من حولك وقوتك ، وحول مثلك وقوة مثلك) .

يقول ابن القيم في زاد المعاد : (وأما اسمه المتوكل ، ففي «صحيح البخاري» عن عبدالله بن عمرو قال : «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ : محمد رسول ا الله ، عبدي ورسولي ، سمّيتُه المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخَّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعين عمي ، وآذان صمٌّ ، وقلوب غلف» وهو أحق الناس بهذا الاسم ، لأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلاً لم يشركه فيه غيره) .

وقال في المدارج : («ومن يتوكل على الله فهو حسبه» ، أي : كافي من يثق به في نوائبه ومهماته يكفيه كل ما أهمه ، والحسب : الكافي «حسبنا الله» : كافينا الله ، وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه ، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة ، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل ، وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة ، فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به .

وقد مثل ذلك : بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل : فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله» .أهـ .

وقال ـ رحمه الله ـ كما في بدائع الفوائد : (السبب الرابع : التوكل على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، فإن الله حسبه ، أي كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو ، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له ، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال : ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ (الطلاق : ٣) .

ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره) .أ .هـ .

وقال في المدارج : (فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه .

قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب .

ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات .

ومن الناس : من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد .

ومنهم : من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار .

قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد .

ومنهم : من يفسره بالرضى فيقول : هو الرضى بالمقدور .

قال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكل على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضي بما يفعل الله .

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلاً فقال : إذا رضي بالله وكيلاً .

ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه .

قال ذو النون : هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة وإنما يقوي العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه .

وقال بعضهم : التوكل ، التعلق بالله في كل حال .

وقيل : نفي الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك .

وقال أبو تراب النخشبي : هو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر .

فجعله مركباً من خمسة أمور : القيام بحركات العبودية ، وتعلق القلب بتدبير الرب ، وسكونه إلى قضائه وقدره ، وطمأنينته وكفايته له ، وشكره إذا أعطى ، وصبره إذا منع .

قال أبو يعقوب النهرجوري : التوكل على الله بكمال الحقيقة . كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام : أما إليك فلا ، لأنه غائب عن نفسه بالله ، فلم ير مع الله غير الله .

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد .

فالتوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته .

وقيل التوكل : قطع علائق القلب بغير الله .

ومنهم : من قال : التوكل هو التسليم لأمر الرب وقضائه .

ومنهم : من قال هو التفويض إليه في كل حال .

ومنهم : من جعل التوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية .

قال أبو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض .

فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

فالتوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية .

هذا كلام الدقاق ومعنى هذا التوكل : اعتماد على الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه وإرادة وشائبة منازعة فإذا سلَّم إليه زال عنه ذلك ورضي بما يفعله وكيله وحال المفوض فوق هذا فإنه طالب مريد ممن فوض إليه متلمس منه أن يتولى أموره ، فهو رضى واختيار وتسليم واعتماد .

فالتوكل يندرج في التسليم ، وهو التسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالى أعلم) أ.هـ .

باب ما جاء في الخشوع لله عز وجل(١) وقوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾

يقول الله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ (الحشر) . وقال تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ (الزمر) . وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾ (الحديد) . وقال تعالى : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ (الإسراء) . وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ (الأنبياء) . وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾ (آل عمران) .

روى مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) يقول ابن منظور في لسان العرب : (خشع يخشع خشوعاً واختشع وتخشع : رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته ، واختشع إذا طأطأ صدره وتواضع ، وقيل : الخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن ، وهو الإقرار بالإستخذاء ، والخشوع في البدن والصوت والبصر كقوله تعالى : ﴿خاشعة أبصارهم﴾ .

وقوله : عز وجل : ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ، أي سكنت ، وكل ساكن خاضع خاشع)أهـ .

قلت : وأصل الخشوع : هو خشوع القلب وسكونه إلى الله عز وجل وطمئنينته إليه وخشيته منه مما يجعله يلين من ذكر الله والتفكر في عظمته ، تتبعه الجلود والجوارح فتلين معه من خشية الله . كما قال الله تعالى : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر : ٢٣) .

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم ، وعذاب القبر . اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليُّها ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يُستجاب لها» .

وروى مسلم عن عوف بن مالك ، أنه قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ يوم فنظر في السماء ثم قال : «هذا أوان العلم أن يرفع» فقال له رجل من الأنصار ، يقال له : زياد بن لبيد : ـ أيرفع العلم يا رسول الله ، وفينا كتاب الله ، وقد علمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن كنت لأظنك من أفقه أهل المدينة» ثم ذكر ضلالة أهل الكتابين ، وعندهما ما عندهما من كتاب الله عز وجل ، فلقي جبير بن نفير شداد بن أوس المصلّى فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك فقال : صدق عوف ، ثم قال : وهل تدري ما رفع العلم؟ قال : قلت : لا أدري ، قال : ذهاب أوعيته ، قال : وهل تدري أي العلم أول أن يرفع؟ قلت : لا أدري ، قال : الخشوع ، حتى لا تكاد ترى خاشعاً» .

وروى البيهقي في السنن الكبرى ، والطبراني في الأوسط ، وأبو يعلى ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما روي عنه أنه قال : «مهلاً عن الله مهلاً ، فإنه لولا شباب خشّع ، وبهائم رتّع ، وشيوخ ركّع ، وأطفال رضّع ، لصب عليكم العذاب صباً» .

وروى أحمد في الزهد ، ومحمد بن نصر المروزي في قيام الليل عن أبي الجلد أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : «إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً ، فإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك ، وإذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل ، وذم نفسك فهي أَوْلى بالذم ، وناجني حين تناجيني بقلب وجل ، ولسان صادق» .

وروى الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : «إن لله تعالى ملائكة في السماء الدنيا خشوعاً منذ خلقت السماوات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون : سبحان ذي

الملك والملكوت ، فإذا كان يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، ولله تعالى ملائكة في السماء الثانية ركوعاً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون : سبحان ذي العزة والجبروت ، ، فإذا كان يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، ولله تعالى ملائكة في السماء الثالثة سجوداً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون : سبحان الحي الذي لا يموت فإذا كان يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» .

وروى الدارمي عن سفيان بن عيينة قال : (أجهل الناس من ترك ما يعلم ، وأعلم الناس من عمل بما يعلم ، وأفضل الناس أخشعهم لله) .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبدالله بن عمر أنه كان (إذا قرأ هذه الآية : ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ بكى حتى يغلبه البكاء) .

وروى أحمد في الزهد عن جعفر قال : سمعت مالك بن دينار (قرأ هذه الآية : ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ فبكى ، وقال : أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه) .

وروى ابن أبي الدنيا عن الحسن قال : «ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع ووجل ، وذل واستقام ، واقتصر حتى يأتيه الموت» .

وروى ابن جرير في تهذيب الآثار والآجري في الشريعة ، وغيرهم عن حذيفة ، قال : (إن أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، وليصلين النساء وهن حيض ، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، وحذو النعل بالنعل ، لا تخطؤون طريقهم ، ولا يخطأ بكم ، حتى يبقى قرن من قرون كثيرة يقولون : ما بال الصلوت الخمس؟ لقد ضل من كان قبلنا ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل**﴾ ، ثم لا يصلون إلا ثلاثاً ، وتقول الأخرى : إنا لمؤمنون بالله كإيمان الملائكة ، ما فينا كافر ولا منافق ، حق على الله أن يحشرهم مع الدجال) .

وروى الطبراني في معجمه الكبير عن عبدالله بن مسعود قال : (من سمَّع سمع الله به ، ومن راءى راءى الله به يوم القيامة ، ومن تخشَّع لله تواضعاً رفعه الله يوم القيامة) .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي الدرداء أنه قال : (تعوذوا بالله من خشوع النفاق ، قال : قيل : يا أبا الدرداء وما خشوع النفاق؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع) .

يقول **ابن القيم في كتابه «الروح»** : (والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق :

أن خشوع الإيمان : هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء ، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء ، وشهود نعم الله ، وجناياته هو ، فيخشع القلب لا محالة ، فيتبعه خشوع الجوارح .

وأما خشوع النفاق : فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً ، والقلب غير خاشع .

وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النفاق ، قيل له : وما خشوع النفاق؟ قال : أن يرى الجسد خاشعاً ، والقلب غير خاشع .

فالخاشع لله : عبد قد خمدت نيران شهوته ، وسكن دخانها عن صدره ، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة ، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حشيَ به ، وخمدت الجوارح ، وتوقر القلب ، واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه ، فصار مخبتاً له ، والمخبت المطمئن ، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقر فيها .(١)

---

(١) يقول ابن منظور في لسان العرب : (روي عن مجاهد في قوله عز وجل : ﴿وبشر المخبتين﴾ ، قال : المطمئنين ، وأخبت لله : خشع ، وأخبت : تواضع ، وكلاهما من الخبت ، وفي التنزيل العزيز : ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ ، وفي حديث الدعاء : واجعلني لك مخبتاً : أي خاشعاً مطيعاً . والإخبات : الخشوع والتواضع . وفي حديث ابن عباس : فيجعلها مخبتة منيبة ، وأصل ذلك من الخبت المطمئن من الأرض) .أهـ .

وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالاً له وذلاً وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه .

وأما التماوت وخشوع النفاق : فهو حال عن تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات ، فهو يتخشع في الظاهر ، وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة) .أهـ .

باب ما جاء في الخشوع في الصلاة

يقول الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ (المؤمنون) . ويقول الله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ㊺﴾ (البقرة) .

روى مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا ركع : «اللهم لك ركعت ، وبك آمنت . ولك أسلمت . خشع لك سمعي وبصري . ومخّي وعظمي وعصبي» . وإذا رفع قال : «اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد» .

وروى أحمد في مسنده عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب ، وجُعلت قرة عيني في الصلاة**» .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : «**سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين . ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله تعالى حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ . قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي . وإذا قال : ﴿مالك يوم الدين﴾ قال : مجّدني عبدي (وقال مرة : فوّض إليّ عبدي) فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ . قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**» .

وروى أبو داود والنسائي وابن حبان عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : «**إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها**» .

وروى أبو داود في سننه وأحمد والنسائي عن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عُشر صلاته تُسعها ثُمنها سُبعها سُدسها خُمسها رُبعها ثُلثها نصفها**» .

وروى الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : «**لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه**» .

ورواه ابن أبي شيبة ، وعبدالرزاق في مصنفه ، والبيهقي موقوفاً على سعيد بن المسيب ، وروى محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ قال : (الخشوع : خشوع القلب ، وأن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً) .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن محمد بن سيرين قال : (كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿**قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً) .

وأخرج ابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة (أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ فطأطأ رأسه) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ قال : (كانوا إذا قاموا في الصلاة أقبلوا على صلاتهم ، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، وعلموا أن الله يقبل عليهم فلا يلتفتون يميناً ولا شمالاً) .

وأخرج ابن سعد عن أبي قلابة قال : (سألت مسلم بن يسار عن الخشوع في الصلاة فقال : تضع بصرك حيث تسجد) .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال : «**اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**» .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم**» فاشتد في ذلك حتى قال : «**لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم**» .

وأخرج عبدالرزاق ، وابن أبي شيبة من طريق عطاء قال : سمعت أبا هريرة يقول : (إذا صليت فإن ربك أمامك وأنت مناجيه فلا تلتفت) قال عطاء : وبلغني أن الرب عزَّ وجلَّ يقول : يا ابن آدم إلى من تلتفت؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء قال : (إياكم والالتفات في الصلاة فإنه لا صلاة للمتلفت) .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : (إن الله لا يزال مقبلاً على العبد ما دام في صلاته ما لم يحدث ، أو يلتفت) .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبدالله بن منقذ قال : (إذا قام الرجل إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت أعرض عنه) .

وروى الترمذي في سننه عن أبي الدرداء : قال : «**كنا مع النبي فشخص ببصره إلى السماء ، ثم قال : «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء» فقال زياد بن لبيد الأنصاري : كيف يختلس منا ، وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ، ولنقرئنه نساءنا ، وأبناءنا؟ فقال : «ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة : هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم» قال جبير : فلقيت عبادة بن الصامت فقلت ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء ، قال صدق أبوالدرداء إن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس : الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً**» .

قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب ، ومعاوية بن صالح ، ثقة عند أهل الحديث .

قال ابن رجب في الفتح : (فأصل الخشوع : هو خشوع القلب ، وهو انكساره لله ، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه ، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه ، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه : «**خشع لك سمعي ، وبصري ، ومخي ، وعظمي ، وما استقل به قدمي**»

ومن جملة خشوع الجوارح خشوع البصر أن يلتفت عن يمينه أو يساره ، وسيأتي حديث الالتفات في الصلاة ، وأنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد ، فيما بعد إن شاء الله تعالى .

والعلماء يذكرون في أوائل الصلاة : أن المصلي لا يجاوز بصره موضع سجوده ، وذلك من جملة الخشوع في الصلاة .

وخرج ابن ماجه من حديث أم سلمة أم المؤمنين ، قالت : «**كان الناس في عهد النبي ﷺ إذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصره موضع قدمه ، فتوفي رسول الله ﷺ ، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصره موضع جبينه ، فتوفي أبو بكر فكان عمر فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة ، وكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة ، فالتفت الناس يميناً وشمالاً**» .أهـ .

وقال المناوي في الفيض : (فإذا خشع القلب أثر ذلك في الجوارح فخشعت ، وصفت الروح ، وزكت النفس ، وإذا أخلص القلب بالطاعة استعمل الجوارح في مصالحه .

قال الحرالي : والخشوع : سكون القلب وهدوء الجوارح ، وبه يحصل حسن السمت والتودد في الأمور واستخلاف الله عبده في مال الدنيا وجاهها .

وقال بعضهم : الخشوع : إعلام القلب أن العبد واقف بين يدي الرب فيسكن الباطن ، وعند ذلك من ملاحظة الأغيار والظاهر عن غير ما أمر به من الأفعال والأذكار) .أهـ .

وقال ابن القيم في طريق الهجرتين : (قال بعض السلف : إني أدخل الصلاة فأحمل هم خروجي منها ويضيق صدري إذا عرفت أني خارج منها ، ولهذا قال النبي ﷺ : «**جعلت قرة عيني في الصلاة**» ، ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه فإن قرة عين العبد نعيمه وطيب حياته به .

وقال بعض السلف : إني لأفرح بالليل حين يقبل ، لما يلتذ به عيشي وتقر به عيني من مناجاة من أحب ، وخلوتي بخدمته والتذلل بين يديه ، وأغتم للفجر إذا طلع ، لما اشتغل به بالنهار عن ذلك ، فلا شيء ألذ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته) .أهـ .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ في كتاب الصلاة : (ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله ، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه ، فإن العبد لو تُرك لطبعه ، ودواعي نفسه ، لتكبَّر وأشر ، وخرج عن أصله الذي خلق منه ، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة ، فنازعه إياهما ، وأمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفاطره ، وخشوعاً ، وتذللاً بين يديه ، وانكساراً له ، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل رداً له إلى حكم العبودية ، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله ، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه ، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه ، وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربه الأعلى ، وخشوعاً له ، وتذللاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، وهذا غاية خشوع الظاهر . فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام ، واستعمله فيها ورده إليها ، ووعده بالإخراج منها ، فهي أمه وأبوه وأصله وفصله ، فضمته حياً على ظهرها ، وميتاً على بطنها ، وجُعلت له طهراً ومسجداً ، فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر ، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء ، فيعفر وجهه في التراب ، استكانة وتواضعاً وخضوعاً وإلقاء باليدين .

وقال مسروق لسعيد بن جبير : ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب له .

وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قصداً ، بل إذا اتفق له ذلك فعله ، ولذلك سجد في الماء والطين .

وقد علّق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته ، فمن فاته خشوع الصلاة ، لم يكن من أهل الفلاح ، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً ، بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة ، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً ، وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ، ولا إقبال على العبودية ، ولا معرفة حقيقة العبودية) .أهـ .

وقال ـ رحمه الله ـ كما في **بدائع الفوائد** : (لما كان المصلي قد تخلى عن الشواغل وقطع جميع العلائق وتطهر وأخذ زينته وتهيأ للدخول على الله ومناجاته شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك ، فيدخل بالتعظيم والإجلال ، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى ، وهو قول : الله أكبر . . فجعل هذا اللفظ واستشعار معناه والمقصود به باب الصلاة الذي يدخل العبد على ربه منه ، فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيى منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره ، فلا يكون موفياً لمعنى الله أكبر ، ولا مؤدياً لحق هذا اللفظ ، ولا أتى البيت من بابه ، بل الباب عنه مسدود ، وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه .

والمقصود أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه (الله أكبر) وقد امتلأ قلبه بغير الله ، فهو قبلة قلبه في الصلاة ، ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها) .أهـ .

باب ما جاء في
خشية الله عز وجل وقوله سبحانه:
﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾

يقول الله تعالى : ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣)﴾ (طه) . ويقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾ (المؤمنون) . وقال الله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ (الحشر) . وقال الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ (الزمر) . وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾ (الملك) . وقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (الإنسان) . وقال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ (النازعات) . وقال الله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ (الرحمن) .

روى الترمذي في سننه عن أنس عن النبي ﷺ قال : «**يقول الله : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام**» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وروى البيهقي وابن أبي الدنيا عن إبراهيم ومجاهد في قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ ، قالا : (هو الرجل يريد أن يذنب فيذكر مقام ربه فيدع الذنب) .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء : (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ذكر ذات يوم وفكر في القيامة ، والموازين ، والجنة والنار ، وصفوف الملائكة ، وطي السموات ، ونسف الجبال ، وتكوير الشمس ، وانتثار الكواكب ، فقال : وددت أني كنت خضراء من هذا الخضر تأتي عليَّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾) .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**مررت ليلة أسري بي على الملأ الأعلى ، فإذا جبريل كالحلس البالي من خشية الله**» .

قال المنذري : الحلس : هو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب .

وروى البخاري في صحيحه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «**بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطر ، فأووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه . فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز . فذهب وتركه ، وأني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً ، وأنه أتاني يطلب أجره ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فسقها ، فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز . فقلت له : اعمد إلى تلك البقر ، فإنها من ذلك الفرق . فساقها . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساخت عنهم الصخرة . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي ، فأبطأت عنهما ليلة ، فجئت وقد رقدا ، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع ، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي ، فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء ، فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس**

إلي وأني راودتها عن نفسها فأبت إلى أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرت ، فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها فقالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركت المائة دينار ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنَّا ، ففرَّج الله عنهم فخرجوا» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عَدْلٌ ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» .

وروى الترمذي في سننه وأحمد وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : «**سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال : لا يا بنت الصديق . ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تُقبل منهم : أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**» .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن : **﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾** قال : (كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر ، ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : «**ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، وكلمة الحق في الرضا والغضب**» . (وروي في ذلك من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً) .

وروى أيضاً في الشعب ، فقال : سمعت أبا عبدالرحمن يقول : سمعت أبا عمرو بن حمدان يقول : وجدت في كتاب أبي سمعت أبا عثمان يقول : (**الخوف من الله**

يوصلك إلى الله ، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله ، واحتقار الناس في نفسك مرض عظيم لا يداوى) .

وروى ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : (خشية الله ، وحب الفردوس يباعدان من زهرة الدنيا ، ويورثان الصبر على المشقة) .

وروى ابن عساكر في تاريخه عن عبدالله بن عوسجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : «أنزلني من نفسك كهمك ، واجعلني ذخراً لك في معادك ، وتقرّب إليَّ بالنوافل أحبك ، ولا تَوَلَّ غيري فأخذلك ، اصبر على البلاء ، وارض بالقضاء ، وكن لمسرتي فيك ، فإن مسرتي أن أطاع ولا أعصى ، وكن مني قريباً ، وأحيي ذكري بلسانك ، ولتكن مودتي في صدرك ، تيقظ من ساعات الغفلة ، واحكم لي لطف الفطنة ، وكن لي راغباً راهباً ، وأمت قلبك من الخشية لي» .

وروى الإمام أحمد في الزهد والبيهقي ، وابن عساكر في تاريخه عن إدريس بن وهب بن منبه ، عن أبيه قال : كنا مع ابن عباس ، فأخبر أن قوماً عند باب بني سهم يختصمون قال : أظنه قال : في القدر قال : فنهض إليهم ، وأعطى محجته عكرمة ، ووضع إحدى يديه عليه ، والأخرى على طاووس ، فلما انتهى إليهم أوسعوا له ، ورحبوا به ، فلم يجلس ، وقال : يا وهب ، كيف قال الفتى؟ قال : قال : لقد كان في عظمة الله وجلاله ، وذكر الموت ، ما يكل لسانك ، ويقطع حجتك ، ويكسر قلبك ، ألم تعلم يا أيوب أن (لله عباداً أسكتتهم خشية الله عز وجل من غير عي ولا بكم ، وإنهم لهم الفصحاء النطقاء ، النبلاء الألباء ، العَلاَّمون بالله وأيامه ، إلا أنهم إذا ذكروا الله عز وجل طاشت عقولهم ، وانكسرت قلوبهم ، وانقطعت ألسنتهم ، إعزازاً لله ، وإجلالاً له ، وإعظاماً ، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزاكية ، يعدون أنفسهم مع المفرطين ، وإنهم لأكياس أقوياء ، وإنهم لأنزاه برآء إلا أنهم لا يستكثرون له الكثير ، ولا يرضون له بالقليل ، ولا يعلون عليه بالأعمال ، هم حيث ما لقيتهم مهيمون ، مشفقون ، وجلون ، خائفون ، قال : ثم انصرف عنهم ، فرجع إلى مجلسه» .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿**إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين**﴾ قال (في الدنيا) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿**ووقانا عذاب السموم**﴾ قال : (وهج النار) .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ قال : «**لو فتح الله من عذاب السموم على أهل الأرض مثل الأنملة أحرقت الأرض ومن عليها**» .

وأخرج عبدالرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة أنه قرأت هذه الآية : ﴿**فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم**﴾ فقالت : «**اللهم من علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم وذلك في الصلاة**» .

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**» .

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي عن إبراهيم التيمي ، قال : (ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة ، لأنهم قالوا : ﴿**الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**﴾ ، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة ، لأنهم قالوا : ﴿**إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين**﴾) .

وروى أبو داود في الزهد عن عبدالله بن مسعود قال : (ليس العلم بكثرةالعلم ولكن العلم من الخشية) .

ورواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود بقوله : (ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية) .

وروى محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن الربيع بن أنس عن بعض أصحابه قال : (علامة حب الله كثرة ذكره ، وعلامة الدين الإخلاص لله ، وعلامة العلم الخشية لله ، وعلامة الشكر الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره) .

وروى ابن أبي الدنيا ، عن سعيد بن زيد قال : سأل المغيرة بن مخادش الحسن فقال : يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يحدثونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال : (أيها الشيخ إنك والله إن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف) .

وروي أيضاً عن وهب بن منبه قال : قال لقمان لابنه : (يا بني : ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته ، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته) .

وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿**تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾ (هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله تعالى . قال : تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى ، ولم ينعتهم الله تعالى بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع ، وإنما هو من الشيطان) .

وروى البيهقي في الشعب عن العباس بن عبدالمطلب عن النبي ﷺ فيما روي عنه أنه قال : «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها**» .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبوالشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أبي الدرداء قال : (إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر ، أما تجد قشعريرة؟ قلت : بلى . قال : فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك) .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عائشة قالت : (ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضرمة السعفة ، فإذا وجد أحدكم فليدع عند ذلك) .

وأخرج أيضاً عن ثابت البناني قال : (قال فلان : إني لأعلم متى يستجاب لي قالوا : ومن أين يعلم ذلك؟ قال : إذا اقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذاك حين يستجاب لي) .

وروى ابن جرير في تفسيره عن قتادة في قوله عز وجل : ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ (الآية) ، قال : (يعذر الله الجبل الأصم ، ولم يعذر شقي ابن آدم ، هل رأيتم أحداً قط تصدعت جوانحه من خشية الله؟

﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس**﴾ يقول تعالى ذكره : وهذه الأشياء نشبهها للناس ، وذلك تعريفه جل ثناؤه إياهم أن الجبال أشد تعظيماً لحقه منهم مع قساوتها وصلابتها) .

وروى الإمام أحمد في الزهد عن مالك بن دينار أنه قرأ هذه الآية : ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ ، قال : (أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه) .

يقول ابن القيم في **مفتاح دار السعادة** : (﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا(١٠٧)**﴾ (طه) : فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته ، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله ، فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال ، تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تُنيب ، فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته ، أن يخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه ، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته ، فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم) .أهـ .

وقال في طريق الهجرتين : (وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» ، وفي لفظ آخر : «**إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى**» ، وكان

ﷺ ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ .

فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف .

قال ابن مسعود : وكفى بخشية الله علماً .

ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعرف الناس أخشاهم لله ، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه ، وخوفه منه ، وحبه له ، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء ، وخوفاً ، وحباً ، فالخوف من أجل منازل الطريق»أهـ .

وقال كما في بدائع الفوائد : (ولهذا قال بعض السلف : من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن ، وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ (الإسراء) .

فابتغاء الوسيلة : هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ، فهذه طريقة عباده وأوليائه) .أهـ .

باب ما جاء في البكاء
من خشية الله عز وجل

يقول الله تعالى : ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (النجم) . وقال الله تعالى : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ (الإسراء) . وقال الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ (مريم) . وقال الله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (التوبة) .

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط . قال : «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين» .

وروى مسلم وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» . قالوا : وما رأيت يا رسول الله؟ قال : «**رأيت الجنة والنار**» .

وروى الترمذي في سننه وأحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال : «لوددت أني كنت شجرة تعضد» .

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : (قال رسول

الله ﷺ : «**اقرأ عليَّ القرآن**» قلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال : «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء)** ، قال : «**حسبك الآن**» ، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان) .

وروى أحمد في مسنده وابن خزيمة والبيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال : «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح» .

وروى أبو داود والترمذي ـ بإسناد صحيح ـ عن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال : «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء» .

وروى ابن حبان في صحيحه عن عبيد بن عمير رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها : أخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله؟ قال : فسكتت ، ثم قالت : «**لما كان ليلة من الليالي ، قال يا عائشة : «ذريني أتعبد الليلة لربي» ، قلت : والله إني أحب قربك ، وأحب ما يسرك . قالت : فقام فتطهَّر ، ثم قام يصلي . قالت : فلم يزل يبكي حتى بل حجره . قالت : وكان جالساً فلم يزل يبكي حتى بل لحيته . قالت : ثم بكى حتى بل الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي ، قال : يا رسول الله تبكي ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : «أفلا أكون عبداً شكوراً . لقد نزلت عليَّ الليلة آية : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران)**» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر منهم : «**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» .

وروى الترمذي في سننه وأحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**» .

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**عينان لا تمسهما النار : عين بكت في جوف الليل من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» .

وروى الديلمي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال : «**ما قُطر في الأرض قطرة أحب إلى الله من دم رجل مسلم في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل من خشية الله حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل**» .

وأخرج عبدالرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي عن الحسن يرفعه إلى النبي ﷺ : «**ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ كظمها رجل ، أو جرعة صبر عند مصيبة ، وما قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم في سبيل الله**» .

وروى أحمد في مسنده والترمذي عن عقبة بن عامر قال : (لقيت رسول الله ﷺ فقال لي : «**يا عقبة بن عامر : صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك**» ، **قال : ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال لي : «يا عقبة بن عامر : املك لسانك ، وابكِ على خطيئتك ، وليسعك بيتك» ، قال : ثم لقيت رسول الله ﷺ فقال لي : «يا** عقبةَ بن عامر : **ألا أعلمك سوراً ما أنزلت في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهن؟ لا يأتين عليك ليلة إلا قرأتهن فيها ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾ . قال عقبة : فما أتت عليَّ ليلة إلا قرأتهن فيها ، وحق لي أن لا أدعهن وقد أمرني بهن رسول الله ﷺ**» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني عن أنس قال (قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾ .

فقال : «أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها» .

قال وبين يدي رسول الله ﷺ رجل أسود يهتف بالبكاء ، فنزل جبريل عليه السلام فقال : يا محمد من هذا الباكي بين يديك؟ قال : «رجل من الحبشة» . وأثنى عليه معروفاً ، قال : فإن الله عز وجل يقول وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي لا تبكي عين عبد في الدنيا من مخافتي إلا أكثرت ضحكه معي في الجنة» .

وأخرج محمد بن نصر عن لقمان بن عامر الحنفي (أن النبي ﷺ مر بشاب يقرأ ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ (الرحمن) ، فوقف فاقشعر وخنقته العبرة يبكي ويقول : ويلي من يوم تنشق فيه السماء ، فقال النبي ﷺ : «يا فتى فوالذي نفسي بيده لقد بكيت الملائكة من بكائك» .

وروى الطبراني في معجمه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر ، عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل ناجى موسى بمئة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام . فلما سمع موسى ﷺ كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل ، وكان فيما ناجاه به أن قال يا موسى : إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ، ولم يتقرب إليَّ المتقربون المتصنعون بمثل الورع عما حرمت عليهم ، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي ، قال موسى : يا رب البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم وماذا جزيتهم؟ قال : أما الزهاد في الدنيا فإني أبيحهم جنتي يتبوؤون منها ، حيث شاؤوا ، وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب إلا الورعين فإني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما البكّاؤون من خشيتي فأولئك لهم الرفيع الأعلى لا يشاركون فيه» .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن نبي الله عيسى ابن مريم ﷺ أنه قال : «يا بن آدم الضعيف : اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً واتخذ المساجد بيتاً ، وعلّم عينك البكاء ، وجسمك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولاتهتم برزق غد» .

وروى ابن أبي الدنيا عن زيد بن أسلم ، قال : (كان داود إذا رفع صوته بقراءة الزبور ، تركت الطير أوكارها ، ثم عكفت عليه حول محرابه ، وكان يبكي حتى تجري دموعه على الأرض ، وكان إذا أتي بالشراب بكى حتى يمزج شرابه بدموعه) .

وروى أيضاً عن علي بن أبي الحر قال : «شبع يحيى بن زكريا ليلة شبعة من خبز شعير ، فنام عن جزئه حتى أصبح ، فأوحى الله إليه : يا يحيى وجدت داراً خيراً لك من داري؟ وجواراً خيراً لك من جواري؟ وعزتي يا يحيى لو اطلعت على الفردوس اطلاعة لذاب جسمك وزهقت نفسك اشتياقاً ، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لبكيت الصديد بعدالدموع ، وللبست الحديد بعد المسوح» .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما : قال : لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قيل له في الصلاة ، قال : «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فقالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء ، فقال : «**مروه فليصل**» .

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت : (**قلت : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء**) .

وأخرج عبدالرزاق في مصنفه وأحمد في الحديث الطويل الذي ترويه عائشة رضي الله عنها في قصة دخول الصديق رضي الله عنه في جوار ابن الدغنة : (فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمَّنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فيعبد ربه في داره ، وليصل فيها ما شاء ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا ولا يشتغلن بالصلاة والقراءة في غير داره . ففعل ، ثم بدا لأبي بكر رضي الله عنه فابتنى مسجداً بفناء داره ، فكان يصلي فيه ويقرأ فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكّاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا : إنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره ، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة ، وإنا خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فإن أحب أن يقتصر أن يعبد ربه في داره

فعل وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان) .

وروى ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن عيسى قال : (كان في وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء) .

وروى أيضاً عن عبدالله بن عبيد بن عمير : (إن أباه كان يقص لابن الزبير ، وابن عمر قاعد ناحية ، فقرأ : ﴿**لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً**﴾ فبكى ابن عمر حتى لثق جيبه من دموعه ، وابتلت لحيته) .

وروى أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما (أنه كان إذا أتى على هذه الآية : ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ بكى حتى يبل لحيته البكاء ، ويقول : بلى يا رب) .

وروى محمد بن نصر المروزي في قيام الليل : (عن محارب بن دثار ـ رحمه الله ـ قال : (دخلت على ابن عمر رضي الله عنه بيته وهو يصلي فإذا هو يبكي في صلاته ، فلما انصرف أقبل علي وعلم أني قد رأيته وهو يبكي ، فقال : إن هذه الشمس لتبكي من خشية الله ، أبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا) .

وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما ـ المطففين ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ بكى حتى خن ، وحتى انقطع عن قراءة ما بعدها .

وكان عبدالله بن عمرو رضي الله عنه يبكي بالليل حتى رسعت عيناه .

ويبكي سعيد بن جبير حتى عمش .

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنه : ولأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار .

وبكى عبدالله بن رواحة رضي الله عنه فبكت امرأته فقال لها : ما يبكيك؟ قالت : أبكاني الذي أبكاك ، قال : أبكاني أني وارد النار فلا أدري أناج منها أم لا .

وقال أبو رجاء : كان هذا المكان من ابن عباس : مثل الشراك البالي من الدموع ، ووضع أصبعه على جفن عينه السفلى .

وقرأت عائشة رضي الله عنها في الصلاة : ﴿**فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم**﴾ فبكت ، ثم قالت : اللهم من علي وقني عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم) .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه وأبو داود في الزهد عن عبدالله بن شقيق العقيلي قال : سمعت كعباً يقول : (لأن أبكي من خشية الله تعالى حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب إليَّ من أن أتصدق بوزني ذهباً ، والذي نفس كعب بيده ما من عبد مسلم يبكي من خشية الله حتى تقطر قطرة من دموعه على الأرض فتمسه النار أبداً حتى يعود قطر السماء الذي وقع إلى الأرض من حيث جاء ولن يعود أبداً) .

وروى البيهقي في الاعتقاد عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ : «**إن النبي ﷺ لما فتن أصحابه بمكة أشار عليهم أن يلحقوا بأرض الحبشة ، فذكر الحديث بطوله إلى أن قال : فكلمه جعفر رضي الله عنه ، يعني النجاشي ، فقال : كنا على دينهم ، يعني على دين أهل مكة ، حتى بعث الله عز وجل فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وعفافه ، فدعا إلى أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما يعبد قومنا وغيرهم من دونه ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، وأمرنا بالصلاة والصيام والصدقة وصلة الرحم وكل ما يعرف من الأخلاق الحسنة ، فتلا علينا تنزيلاً جاءه من الله عز وجل لا يشبهه شيء غيره ، فصدقناه وآمنا به ، وعرفنا أن ما جاء به هو الحق من عند الله عز وجل ، ففارقنا عند ذلك قومنا وآذونا ، فقال النجاشي : هل معكم مما نزل عليه شيء تقرؤونه عليّ؟ قال جعفر : نعم ، فقرأ ﴿كهيعص﴾ فلما قرأها بكى النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، وقال النجاشي : إن هذا الكلام والكلام الذي جاء به موسى عليه السلام ليخرجان من مشكاة واحدة**» .

[قلت] وفي مثل هذا نزل قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ**

أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ (المائدة) .

وروى ابن أبي الدنيا عن الحسن ، قال : (لقد صحبت أقواماً يبيتون لربهم في سواد هذا الليل سجداً وقياماً ، يقومون هذا الليل على أطرافهم تسيل دموعهم على خدودهم ، فمرة ركعاً ، ومرة سجداً يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، لم يملوا كلال السهر لما قد خالط قلوبهم من حسن الرجاء في يوم المرجع ، فأصبح القوم بما أصابوا من النصب لله في أبدانهم فرحين ، وبما يأملون من حسن ثوابه مستبشرين ، فرحم الله أمرأ نافسهم في مثل هذه الأعمال ولم يرض من نفسه لنفسه بالتقصير في أمره واليسير من فعله ، فإن الدنيا عن أهلها منقطعة ، والأعمال على أهلها مردودة قال : ثم يبكي حتى تبتل لحيته بالدموع» .

وروى ابن أبي الدنيا عن الحسن ، قال : (بلغنا أن الباكي من خشية الله لا يقطر من دموعه قطرة على الأرض حتى تعتق رقبته من النار ، ولو أن باكياً بكى في ملأ من الملأ لرحموا جميعاً ببكائه) .

وروى أيضاً عن حمزة الأعمى ، قال : ذهبت أمي إلى الحسن ، فقالت : يا أبا سعيد ابني هذا قد أحببت أن يلزمك ، فلعل الله أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لي يوماً : (يا بني - أَدِم - الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ، وابك في ساعات الخلوة لعل مولاك يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين ، قال : وكنت أدخل عليه منزله وهو يبكي ، وآتيه مع الناس وهو يبكي ، وربما جئت وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً يا أبا سعيد إنك لتكثر من البكاء ، فبكى ثم قال : يا بني فما يصنع المؤمن إذا لم يبك؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة ، فإن استطعت أن لا تكون عمرك إلا باكياً فافعلَ ، لعله يراك على حالة فيرحمك بها ، فإذا أنت قد نجوت من النار) .

وروى أيضاً ابن أبي الدنيا ، عن سفيان ، قال : «كان سعيد بن السائب الطائفي لا

تكاد تجف له دمعة ، إنما دموعه جارية دهره ، إن صلى فهو يبكي ، وإن طاف فهو يبكي ، وإن جلس يقرأ في المصحف فهو يبكي ، وإن لقيته في طريق فهو يبكي» .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي حازم : عن النبي ﷺ فيما رُوي عنه أنه (**نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكي ، فقال : من هذا؟ قال : فلان . قال جبريل . إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله يطفئ بالدمعة نهوراً من نيران جهنم**) .

وروى ابن أبي الدنيا عن هارون بن رئاب قال : (بلغني أن البكاء مثاقيل لو وزن بالمثقال الواحد منه مثل جبال الدنيا ، أو قال :ـ جبال الأرض ـ رجح البكاء وإن الدمعة لتنحدر فتطفئ البحور من النار) .

وروى ابن أبي الدنيا أيضاً عن الحسن قال : (إذا أذن المؤذن لم تبعد دابة بر ولا بحر إلا أصغت واستمعت ، قال : ثم بكى الحسن بكاء شديداً) .

وروى أيضاً عن أبي عمر الخطابي ، قال : حدثني رجل من أهلهم ، قال : «كان عتبة الغلام يبكي حتى تمتلئ راحته بدموع عينيه ، ثم يمسح بها وجهه ورقبته ، ويقول : إلهي وسيدي لا تخزني يوم يقوم الحساب ، قال : وكان إذا سمع النداء بكى» .

وروى أيضاً عن علي بن الحسين أنه كان : (إذا توضأ اصفرَّ . فيقول له أهله : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول : تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟» .

وروى أيضاً فقال : حدثني محمد ، قال : حدثني عمار بن عثمان ، قال : سمعت بيهماً العجلي ، يقول : «وعزتك إلهي ، ما بكى الباكون إليك فخيبتهم من فضلك ، بل ظن أوليائك بك أحسن الظنون ، ورجاؤهم لك أكثر الرجاء ، قال : ثم يبكي حتى يبل لحيته بالدموع» .

وروى أيضاً عن عبدالواحد بن زيد يقول : (يا إخوتاه : ألا تبكون شوقاً إلى الله؟ ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيده لم يحرمه النظر إليه ، يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من النار؟ ألا إنه من بكى خوفاً من النار أعاذه الله منها ، يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من العطش يوم

القيامة؟ ألا إنه من بكى خوفاً من ذلك سقي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، يا إخوتاه ألا تبكون؟ بلى ، فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه مع الأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

وروى أيضاً عن بسطام بن حريث ، قال : «كان أيوب يرق فيستدمع ، فيحب أن يخفي ذلك على أصحابه ، فيمسك على أنفه كأنه رجل مزكوم ، فإذا خشي أن تظبه عبرته ، قام» .

وروى أيضاً عن محمد بن واسع قال : (إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة ومعه امرأته ما تعلم به) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان : وبإسناده قال : (كان عطاء السليمي يبكي حتى خشي على عينه فأتي طبيب يداوي عينه ، قال : أداوي بشرط أن لا تبكي ثلاثة أيام ، قال : فاستكثر ذلك وقال لا حاجة لنا فيك) .

وذكر ابن القيم في كتابه الروح قال : (وقال أبو بكر بن أبي مريم : رأيت وفاء بن بشر بعد موته ، فقلت ما فعلت يا وفاء؟ قال : نجوت بعد كل جهد ، قلت : فأي الأعمال وجدتموها أفضل؟ قال : البكاء من خشية الله عز وجل) .

وقال في زاد المعاد : (وأما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه ، لم يكن بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة ، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا ، ويسمع لصدره أزيز . وكان بكاؤه تارة رحمة للميت ، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها ، وتارة من خشية الله ، وتارة عند سماع القرآن ، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال ، مصاحب للخوف والخشية .

ولما مات ابنه إبراهيم ، دمعت عيناه وبكى رحمة له ، وقال : «تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» .

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض .

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى فيها إلى قوله تعالى : ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾﴾ (النساء) .

وبكى لما مات عثمان بن مظعون .

وبكى لما كسفت الشمس ، وصلى صلاة الكسوف ، وجعل يبكي في صلاته ، وجعل ينفخ ، ويقول : «**رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم ، وهم يستغفرون**» .

وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل .

والبكاء أنواع :

أحدها : بكاء الرحمة ، والرقة .

والثاني : بكاء الخوف والخشية .

والثالث : بكاء المحبة والشوق .

والرابع : بكاء الفرح والسرور .

والخامس : بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله .

والسادس : بكاء الحزن .

والفرق بينه وبين بكاء الخوف ، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه ، أو فوات محبوب ، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك ، والفرق بين بكاء السرور والفرح ، وبكاء الحزن ، أن دمعة السرور باردة ، والقلب فرحان ، ودمعة الحزن حارة ، والقلب حزين ، ولهذا يقال لما يفرح به : هو قرة عين ، وأقر الله به عينه ، ولما يحزن : هو سخينة العين ، وأسخن الله عينه به .

والسابع : بكاء الخور والضعف .

والثامن : بكاء النفاق ، وهو أن تدمع العين ، والقلب قاس ، فيظهر صاحبه الخشوع ، وهو من أقسى الناس قلباً .

والتاسع : البكاء المستعار والمستأجر عليه ، كبكاء النائحة بالأجرة ، فإنها كما قال عمر بن الخطاب : تبيع عبرتها ، وتبكي شجو غيرها .

والعاشر : بكاء الموافقة ، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم ، فيبكي معهم ، ولا يدري لأي شيء يبكون ، ولكن يراهم يبكون فيبكي .

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت ، فهو بكاء مقصور ، وما كان معه صوت فهو بكاء ، ممدود على بناء الأصوات .

وقال الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاها

وما يغني البكاء ولا العويل

وما كان منه مستدعي متكلفاً فهو التباكي ، وهو نوعان : محمود ، ومذموم .

فالمحمود : أن يستجلب لرقة القلب ، ولخشية الله ، لا للرياء والسمعة .

والمذموم : أن يجتلب لأجل الخلق .

وقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارى بدر :

أخبرني ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ، ولم ينكر عليه .

وقد قال بعض السلف : أبكوا من خشية الله ، فإن لم تبكوا فتباكوا) .أهـ .

باب ما جاء في حسن الظن بالله تعالى ورجاء رحمته وقوله تعالى في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي»

يقول الله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ (الأعراف) . وقال الله تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ... (١٥٤)﴾ (آل عمران) . وقال الله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ (الفتح) . وقال الله تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ (فصلت) .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأهم خير منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً ، تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة**» .

وروى أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**إن الله عز وجل قال : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن بي خيراً فله ، وإن ظن شراً فله**» .

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**» .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي**» .

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب أنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي ، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال رسول الله : «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار» ، قلنا : لا والله وهي أقدر على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله ﷺ : «**لَلّه أرحم بعباده من هذه بولدها**» .

وروى الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه ، ذكر أحدهما عن النبي ﷺ : «**أنه ذكر أن جبريل جعل يدسُّ في فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله ، أو خشية أن يرحمه الله**» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين . وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق . حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**» .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً . فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال : لا . فقتله ، فكمَّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي . فجعلوه بينهم . فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى ، فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة**» .

قال قتادة : فقال الحسن : ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره .

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود : أن امرأة من الأنصار أتت النبي ﷺ بعشرة أولاد لها ، فقالت : هؤلاء أولادي معك اغز بهم في سبيل الله فكان النبي ﷺ يغزو بهم فكانت تسأل عنهم حتى استشهد منهم سبعة فكانت بمن مضى منهم أشد فرحاً منها بمن بقي حتى بقي واحد منهم فكان أصغرهم وكان فيه التواء فمرض فكانت أمه عند رأسه تمرضه وتبكي فقال : يا أمه ، ما لك لمَ تبكين؟ لأخوتي كانوا خيراً لك مني وكان في عليك التواء؟ قالت : لذلك أبكي قالَ : يا أمه ، أرأيت لو أن النار بين يديك أكنت تلقيني فيها؟ قالت : لا ، قال : فإن ربي عز وجل أرحم بي منك ، قال : فمات ، فقال لها النبي ﷺ : «**إن ابنك قد غُفر له بحسن ظنه بربه**» .

وروى أبو داود في الزهد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : (ما أحسن عبد الظن بالله قط إلا أعطاه الله على ذلك ، وذلك أن الخير كله بيديه) .

وروى ابن أبي الدنيا عن سفيان الثوري رحمه الله : (في قول الله تعالى ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ قال : أحسنوا بالله الظن) .

وروى أيضاً ، عن شعيب بن سليمان ، أو غيره قال : (إن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة ، فقال : علمني علماً أزدد به إيماناً ويقيناً ، فقال له : إنك لا تطيق ذلك قال : لعل الله تعالى أن يطوقني قال : لا تغتم لغد ، واعمل في اليوم لغد ، وإن آتاك الله من الدنيا سلطاناً أو مالاً فلا تفرح به ، وإن صرف عنك فلا تأس عليه ، وكن حسن الظن بالله عز وجل ، وضع يدك على قلبك فما أحببت أن تصنع بنفسك فاصنعه بأخيك ، ولا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، ورد الغضب بالكظم ، وَسكِّنه بالتؤدة ، وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً) .

وروى أيضاً عن سهيل ، أخو حزم القطعي قال : رأيت مالك بن دينار رحمه الله في منامي ، فقلت : يا أبا يحيى ليت شعري ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال : (قدمت بذنوب كثيرة ، محاها عني حسن الظن بالله) .

وروى أيضاً عن عبدالواحد بن زيد رحمه الله ، قال : رأيت حوشباً في منامي ، فقلت : أبا بشر كيف حالكم؟ قال : نجونا بعفو الله ، قال : قلت : فما تأمرنا به؟ قال : (عليك بمجالس الذكر ، وحسن الظن بمولاك ، فكفى بهما خيراً) .

وروى أيضاً عن عمار بن سيف ، قال : رأيت الحسن بن صالح في منامي ، فقلت : (قد كنت متمنياً للقائك فماذا عندك فتخبرنا به؟ قال : (أبشر فلم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً) .

وروى ابن المبارك في الزهد عن عبدالله بن عباس قال : (إذا رأيتم الرجل بالموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن به ، وإذا كان حياً فخوفوه بربه عز وجل) .

وروى ابن أبي الدنيا ، عن إبراهيم ، قال : (كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه عز وجل) .

وروى أيضاً عن حاتم بن سليمان قال : (دخلنا على عبدالعزيز بن سليمان وهو يجود بنفسه ، فقلت : كيف تجدك؟ قال : أجدني أموت ، فقال له بعض إخوانه : على أية حال رحمك الله؟ فبكى ، ثم قال : ما نعول إلا على حسن الظن بالله ، قال : فما خرجنا من عنده حتى مات) .

وروى أيضاً فقال : حدثني الحسين بن عمرو بن محمد القرشي ، عن الحسين بن علي ، عن محمد بن أبان ، عن حميد ، قال : (كان لي ابن أخت مرهق ، فمرض ، فأرسلت إلى أمه ، فأتيتها فإذا هي عند رأسه تبكي ، فقال : يا خالي ، ما يبكيها؟ قلت : ما تعلم منك ، قال : أليس إنما ترحمني؟ قلت : بلى ، قال : فإن الله عز وجل أرحم بي منها ، فلما مات أنزلته القبر مع غيري ، فذهبت أسوي لبنة فاطلعت في اللحد ، فإذا هو مد البصر ، فقلت لصاحبي : هل رأيت ما رأيت؟ قال : نعم فليهنك ذلك ، فظننت أنه بالكلمة التي قالها» .

وروى أيضاً فقال : حدثنا أبو عمر ومحمد بن عبدالعزيز بن أبي رزمة المروزي قال :

أخبرنا علي بن شقيق ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن أبي غالب ، قال : (كنت أختلف إلى الشام في تجارة ، وعظم ما كنت أختلف من أجل أبي أسامة فإذا فيها رجل من قيس من خيار المسلمين ، فكنت أنزل عليه ومعنا ابن أخ له مخالف ، يأمره وينهاه ويضربه فلا يطيعه ، فمرض الفتى فبعث إلى عمه فأبى أن يأتيه قال : فأتيته به حتى أدخلته عليه ، فأقبل عليه يسبه ويقول : أي عدو الله الخبيث ، ألم تفعل كذا؟ قال : أفرغت أي عم؟ قال : نعم ، قال : أرأيت لو أن الله عز وجل دفعني إلى والدتي ، ما كانت صانعة بي؟ قال : إذاً والله تدخلك الجنة ، قال : فوالله لله أرحم بي من والدتي ، فقبض الفتى ، قال : فخرج عليه عبدالملك بن مروان فدخلت القبر مع عمه ، قال : فخطوا له خطاً ولم يلحدوا ، قال : فقلنا : باللبن فسويناه ، قال : فسقطت منه لبنة ، فوثب عمه وتأخرت ، قلت : ما شأنك؟ قال : ملئ قبره نوراً ، وفسح له فيه مد البصر) .

وروى أيضاً عن محمد بن مطرف ، قال : دخلنا على ابن حازم الأعرج لما حضره الموت فقلنا : يا أبا حازم كيف تجدك؟ قال : (أجدني بخير ، أجدني راجياً لله عز وجل حسن الظن به إنه والله لا يستوي من غدا وراح يعمر عقد الآخرة لنفسه فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتى يقدم عليها فيقوم لها وتقوم له ، ومن غدا وراح في عقد الدنيا يعمرها لغيره ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب) .

وروى أيضاً عن مطرف أنه كان يقول : (يا إخوتاه اجتهدوا في العمل ، فإن يكن الأمر كما ترجون من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات ، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل : ﴿**ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل**﴾ نقول : قد عملنا فلم يكن ينفعنا ذلك) .

وروى أيضاً عن الحسن أنه قال : (إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة ، يقول : إني لحسن الظن بربي ، وكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل) .

وروى أيضاً عن أبو يعقوب القارئ ، قال : رأيت في منامي رجلاً آدم طوالاً والناس

يتبعونه قلت : من هذا؟ قالوا : أويس القرني قال : فاتبعته ، فقلت : أوصني رحمك الله ، فكلح في وجهي قلت : مسترشداً فأرشدني أرشدك الله ، فأقبل علي فقال : (ابتغ رحمة ربك عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني) .

وروى أيضاً عن وهب بن منبه قال : قال لقمان لابنه : (يا بني أرْجُ الله رجاء لا يجرؤك على معصيته ، وخوف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته) .

وجاء في شعب الإيمان للبيهقي قوله رحمه الله : (وأفضل الرجاء ما تولد من مجاهدة النفس ومجانبة الهوى قال الله عز وجل : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢١٨)﴾ (البقرة)أهـ .[١]

---

(١) يقول النووي في شرحه لصحيح مسلم : (قال العلماء : معنى حسن الظن بالله تعالى : أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه ، قالوا : وفي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً ويكونان سواء ، وقيل يكون الخوف أرجح فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء لأن مقصود الخوف الإنكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال ، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان) .

وجاء في كتاب تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي ـ للمباركفوري : (قوله : «**أنا عند ظن عبدي بي**» أي : أنا أعامله على حسب ظنه بي ، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر ، والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف وحسن الظن بالله كقوله ﷺ : «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**» . ويجوز أن يراد بالظن اليقين . والمعنى : أنا عند يقينه بي وعلمه بأن مصيره إليَّ وحسابه عليَّ وأن ما قضيت به له أو عليه من خير أو شر لا مرد له . لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ، قاله الطيبي .

وقال القرطبي في المفهم : قيل معنى ظن عبدي بي ظن الإجابة عند الدعاء ، وظن القبول عند التوبة ، وظن المغفرة عند الاستغفار ، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكاً بصادق وعده ، قال ويؤيده قوله في الحديث الآخر : «**ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة**» . قال : ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه ، موقناً بأن الله يقبله ويغفر له ، لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ، فإن اعتقد أو ظن أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله وهو من الكبائر ، ومن مات على ذلك وكل إلى ما ظن . كما في بعض طرق الحديث المذكور ، فيظن بي عبدي ما شاء . قال : وأما ظن المغفرة مع الإصرار فذلك محض الجهل والغرة ، وهو يجر إلى مذهب المرجئة) .أهـ .

باب ما جاء في محبة الله عز وجل
وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾ (البقرة). ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾ (المائدة) وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ (آل عمران). وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ (التوبة).

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**».

وروى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه**».

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله

ﷺ : «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا لم يُصبني كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» .

وروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد ، قال : كان سعد بن أبي وقاص في إبله ، فجاءه ابنه عمر . فلما رآه سعد قال : أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فنزل ، فقال له : أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال : اسكت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله يحب العبد التقي ، الغني ، الخفي**» .

وروى ابن ماجه في سننه عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه خرج يوماً إلى مسجد رسول الله ، فوجد معاذ بن جبل قاعداً عند قبر النبي يبكي . فقال : ما يبكيك؟ قال : يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول : «**إن يسير الرياء شرك ، وإن من عادى لله ولياً فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة**» .

وروى الترمذي في سننه عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «كان من دعاء داود يقول : اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إليَّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد . قال ، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر داود يحدث عنه قال كان أعبد البشر» .

وروى أبو داود في سننه عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : «**من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**» .

وروى البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ فيما روي عنه أنه قال : «**ثلاثة يحبهم الله عز وجل ، يضحك إليهم ويستبشر بهم ، الذي إذا انكشفت**

فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل ، وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدي كيف صبر لي نفسه ، والذي له امرأة حسناء وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيذر شهوته فيذكرني ويناجيني ولو شاء لرقد ، والذي يكون في سفر وكان معه ركب فسهروا ونصبوا ثم هجعوا فقام في السحر في سراء أو ضراء» .

وروى البيهقي في الدلائل عن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال : «أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملّوا كلام الله تعالى وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم» .

قال بعض العارفين : (من امتلأ قلبه من محبة الله لم يكن فيه فراغ لشيء من إرادة النفس والهوى . وإلى ذلك أشار القائل بقوله :

أروح وقد ختمت على فؤادي
بحبك أن يحلَّ به سواكا
فلو أني استطعت غضضت طرفي
فلم أنظر به حتى أراكا
أحبك لا ببعضي بل بكلي
وإن لم يُبْقِ حُبُّكَ لي حِراكا
وفي الأحباب مخصوص بوجد
وآخر يدّعي معه اشتراكا
إذا اشتبكت دموع في خدود
تبين من بكى ممن تباكا

القلب بيت الرب . وفي بعض الإسرائيليات : «ما وسعني سمائي ولا أرضي ، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن» . فمتى كان القلب فيه غيرُ الله ، فالله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وهو لا يرضى بمزاحمة أصنام الهوى .

الحقُّ غيور ، يَغار على عبده المؤمن أن يسكن في قلبه سواه ، أو أن يكون فيه شيء لا يرضاه .

أردناكم صــــرفــــاً فلمــــا مُــــزجــــتم

بعــــدتم بمقــــدار التــــفــــاتكم عنَّا

وقلنا لكم لا تُسكنوا القلب غــــيــــرنا

فــــأسكنتم الأغــــيــــار ، مــــا أنتم منَّا

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : (وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن ، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ومعبودها ، ووليها ومولاها ، وربها ومدبرها ورازقها ، ومميتها ومحييها ، فمحبته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرور النفوس ، وقوت القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون ، وعمارة الباطن ، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية أحلى ، ولا ألذ ، ولا أطيب ، ولا أسر ، ولا أنعم من محبته والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة) .أهـ .

وقال في طريق الهجرتين : (وقيل : المحبة تعلق القلب بالمحبوب .

وقيل : انصباب القلب إلى المحبوب .

وقيل : سكون القلب إليه .

وقيل : اشتغال القلب بالمحبوب ، بحيث لا يتفرغ قلبه لغيره .

وقيل : المحبة حفظ الحدود ، فليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده .

وقيل : المحبة سقوط كل محبة من القلب سوى محبة حبيبك .

وقيل : المحبة صدق المجاهدة في أوامر الله ، وتجريد المتابعة لسنة رسول الله؟ ﷺ .

وقيل : المحبة أن لا يفتر من ذكره ، ولا يمل من حقه ، ولا يأنس بغيره .

وقيل : المحبة أن يميتك حبيبك وتحيا به .

وقال أبو عبدالله القرشي : المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء .

وقيل : أن تمحو من قلبك ما سوى المحبوب .

وقيل : المحبة نسيان حظك من محبوبك وفقرك بكلك إليه) .أهـ .

وقال أيضاً : (وقال الجنيد : ادَّعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة : ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٣١)﴾ (آل عمران) ، يعني أن متابعة الرسول ﷺ هي موافقة حبيبكم ، فإنه المبلغ عنه ما يحبه وما يكرهه .

وقال مالك في هذه الآية : من أحب طاعة الله أحبه الله وحببه إلى خلقه ، وإنما كانت موافقة المحبوب دليلاً على محبته ، لأن من أحب حبيباً فلا بد أن يحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه ، وإلا لم يكن محباً له محبة صادقة) .

وقال في **زاد المعاد** عندما تكلم عن مرتبة الخلة التي وصل إليها نبي الله إبراهيم عليه السلام : (وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلاً ، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها ، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه ، فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدي الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب) .أهـ .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ في كتابه «**الروح**» : (ومنهم : من يكون محبوساً في

الأرض ، لم تَعْلُ روحه إلى الملأ الأعلى ، فإن كانت روحاً سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما لا تجامعها في الدنيا ، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره ، والأنس به ، والتقرب إليه ، بل هي أرضية سفلية ، لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك ، كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها ، فالمرء مع من أحب في البرزخ يوم القيامة ، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد ، كما تقدم في الحديث ، ويجعل روحه يعني المؤمن مع النسم الطيب ، أي الأرواح الطيبة المشاكلة ، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك) .أهـ .

باب ما جاء في تودد الرب عز وجل لعبده المؤمن ومحبته له وقوله سبحانه: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ (البروج). وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (المائدة). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ (مريم).

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض».

روى الترمذي في سننه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، قال: فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في السماء، ثم تُنزل له البغضاء في الأرض**».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وروى البيهقي في الزهد الكبير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ قال: (أي وداً في قلوب أهل الإيمان).

وأخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه، عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن

قوله : ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦)﴾ ما هو؟ قال : «المحبة ، في قلوب المؤمنين ، والملائكة المقربين ، يا علي ، إن الله أعطى المؤمن ثلاثاً : المنة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين» .

وأخرج عبدالرزاق وابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦)﴾ قال : (محبة في الناس في الدنيا) .

وأخرج هناد ، عن الضحاك ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦)﴾ ، قال : (محبة في صدور المؤمنين) .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ **سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦)﴾ قال : (يحبهم ويحببهم) .

وأخرج الأصبهاني عن زيد بن أسلم قال : «**كان يقال** : **من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا**» .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : (﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦)﴾ . أي يلقي بينهم المحبة ، فيحب بعضهم بعضاً ، فيتراحمون ، ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة .

وقال ابن عباس : يحبهم ويحببهم إلى عباده .

قال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم) .

وقال في طريق الهجرتين : (ولما كان الحب يتعلق بالذات كان من أسمائه سبحانه ﴿**الودود**﴾ ، قال البخاري في صحيحه : «الحبيب» . . . والذي يزيد هذا المعنى تقريراً أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه ، فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه ، (فلما أحبه) ألهمه حبه وآثره به ، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها فإنه ، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أتاه مشياً أتاه هرولة .

وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له ، فإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فر من محبه وآثر غيره عليه ، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره ، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله ، والشاهد أقوى شاهد تؤيده الفطرة والعقل ، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به ، فإذا انضافت للشريعة المنزلة إلى الفطرة المكملة إلى العقل الصحيح المنور ، فذلك الذي لا غاية له بعده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .أهـ .

باب ما جاء في الصبر على أمر الله وأقدار الله وترك محارم الله وقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ (الرعد). وقال الله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ (المدثر). وقال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (النحل). وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ (آل عمران). وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ (البلد). وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (السجدة). وقال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة). وقال الله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (النحل).

روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السموات والأرض. والصلاة نور، والصدقة برهان. والصبر ضياء. والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو. فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها»**.

وروى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: **«اتّقي الله واصبري»** قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال ﷺ: **«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»**.

وروى البخاري أيضاً، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن ناساً من

الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده فقال : «**ما يكون عندي من خير فلن ادّخره عنكم ، ومن يستعفف يعفّه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبَّر يصبّره الله ، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**» .

وروى البخاري عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : (رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، كانت رحمة من الله ، فسألنا نافعاً : على أي شيء بايعهم ، على الموت؟ قال : لا ، بل بايعهم على الصبر) .

وروى أحمد في مسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : كنت رديف النبي ﷺ ، فقال : «**يا غلام أو يا غليم ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، فقلت : بلى ، فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وإن النصر مع الصبر ، وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً**» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن مرسلاً ، يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال : «**ما جرعة أحب إلى الله : من جرعة غيظ كظمها رجل ، أو جرعة صبر عند مصيبة ، وما قطرة أحب إلى الله : من قطرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم في سبيل الله**» .

وروى أحمد في المسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «**ما من جرعة أحب إليَّ من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبدالله إلا ملأ الله جوفه إيماناً**» .

وروى أحمد والترمذي عن سهل بن معاذ عن أبيه عن النبي ﷺ قال : «من كظم غيظه وهو يقدر على أن ينتصر دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيّره في حور العين أيتهن شاء» .

وروى ابن أبي الدنيا عن ميثم : أن موسى عليه السلام قال : (أي رب : أي عبادك أصبر؟ قال : أكظمهم للغيظ) .

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة عن النبي ﷺ فيما روي عنه أن قال : «**قال الله : إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، فمن صبر على ذلك» قال : ثم نقر رسول الله ﷺ بيده ثم قال : «عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»** .

وروى البيهقي في شعب الإيمان وابن أبي الدنيا عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية : ﴿**عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ فقال : أما والله سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : «**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله**» قال : وأخبرني غيره قالوا : يا رسول الله أجر خمسين منهم قال : «**أجر خمسين منكم**» .

وروى ابن أبي الدنيا عن خباب بن الأرت قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو مضطجع تحت شجرة ، متوسد رداءه تحت رأسه ، فقلت : ألا تدعو على هؤلاء القوم الذين قد خشينا أن يردونا عن ديننا؟ فصرف وجهه ، حتى فعل ذلك ثلاثاً ، كل ذلك أقول له ، ثم جلس في الثالثة فقال : أيها الناس ، «اتقوا واصبروا» فوالله إن كان الرجل من المؤمنين قبلكم ليوضع المنشار على رأسه فيشق باثنين ، لا يرتد عن دينه فاتقوا الله واصبروا ، فإن الله فاتح وصانع لكم» .

وروى وكيع في الزهد عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : «**وجدنا خير عيشنا بالصبر**» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عكرمة قال : «قال علي خمس احفظوهن لو

ركبتم الإبل لانضيتموهن قبل أن تدركوهن ، لا يخاف العبد إلا ذنبه ، ولا يرجوا إلا ربه ، ولا يستحي جاهل أن يسأل ، ولا يستحي عالم إن لم يعلم أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له» .

وقال البخاري : «وقال ابن عباس : ﴿**ادفع بالتي هي أحسن**﴾ : الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوه عصمهم الله وخضع لهم عدوهم ﴿**كأنه ولي حميم**﴾» .

وروى ابن أبي الدنيا عن الفيض بن إسحاق قال : سألت الفضيل عن قوله : ﴿**سلام عليكم بما صبرتم**﴾ فقال : (صبّروا أنفسهم على ما أمرهم به من طاعته ، وصبّروا أنفسهم عما نهاهم عنه من معصيته ، فقالت لهم الملائكة حين أكرمهم الله : ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخزار في قوله تعالى : ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ قال : (هل جزاء من انقطع عن نفسه إلا التعلق بربه ، وهل جزاء من انقطع عن أنس المخلوقين إلا الأنس برب العالمين ، وهل جزاء من صبر علينا إلا الوصول إلينا ومن وصل إلينا هل يجمل به أن يختار علينا ، وهل جزاء التعب في الدنيا والنصب فيها إلا الراحة في الآخرة ، وهل جزاء من صبر على البلوى إلا التقرب إلى المولى ، وهل جزاء من سَلَّم قلبه إلينا أن نجعل تَوْلِيَتَهُ إلى غيرنا ، وهل جزاء من بَعُدَ عن الخلق إلا التقرب إلى الحق) .

وروى ابن أبي الدنيا عن مسمع بن عاصم قال : قال لي عبدالواحد بن زيد : (من نوى الصبر على طاعة الله صبَّره الله عليها وقواه لها ، ومن عزم على الصبر عن معاصي الله أعانه الله على ذلك وعصمه عنها ، قال : وقال لي : يا سيار ، أتراك تصبر لمحبته عن هواك فيخيب صبرك؟ لقد أساء بسيده الظن من ظن به هذا وشبهه قال : ثم بكى عبدالواحد حتى خفت أن يغشى عليه ، ثم قال : بأبي أنت مسمع : نِعَمَهُ رائحة وغادية على أهل معصيته ، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن إبراهيم بن أدهم قال : (دخلت الإسكندرية فلقيت شيخاً يقال له أسلم بن زيد الجهني ، فقال لي : من أين أنت؟ قلت : من أهل خراسان . فقال : ما حملك على الخروج من الدنيا؟ قلت : زهد فيها ورجاء ثواب من الله عز وجل . فقال لي : إن العبد لا يتم له رجاء ثواب من الله عز وجل حتى يحمل نفسه على الصبر . فقال : رجل من أصحابه : وأي شيء الصبر؟ قال : هو أن يروض نفسه على احتمال مكاره الأنفس . قال إبراهيم : هذا تصبُّر وليس بصبر . ففزع وراعه قولي وقال : يا غلام من أين لك هذا الذي قلت؟ قلت : عطاء من الله عز وجل فقال لي : صدقت هو تصبُّر وليس بصبر . يا غلام احفظ عني وعه واحتمل واعقل واعلم أن أدنى منازل الزاهدين في الدنيا احتمال المكاره للأنفس ، فإذا كان العبد محتملاً للمكاره أورث الله عز وجل قلبه نوراً ، قلت : وما ذاك النور؟ قال : سراج يضيء قلبه) .

وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد بن جبير قال : (الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه ، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان ، قال : حدثني حكيم بن جعفر ، حدثني قرة النجات ، قال : قلت لعابد في بيت المقدس أوصني قال : (عليك بالصبر والتصبر والاصطبار . قلت : ما الصبر وما التصبر وما الاصطبار؟

قال : أما الصبر : فالتسليم والرضا بنزول المصائب والبلوى وتوطين النفس عليها قبل حلولها .

وأما التصبر : فتجرع مرارتها عند نزولها ومجاهدة النفس على هدوئها وسكونها .

وأما الاصطبار : فاستقبال ما ينزل من المصائب والبلوى بالطلاقة والبشر وانتظار ما لم ينزل منها بالاعتبار والتفكير ، فإذا كان العبد كذلك كان مصطبراً لم يبال ما تقدم من ذلك) .

وروى **ابن أبي الدنيا** فقال : (قال خلف : فذكرت ذلك لرجل منهم يكنى أبا

ميمون، وكان عاقلاً، فقال: (يا أبا إسماعيل إن للصبر شروطاً قلت: ما هي يا أبا ميمون؟ قال: إن من شروط الصبر أن تعرف كيف تصبر؟ ولمن تصبر؟ وما تريد بصبرك؟ وتحتسب في ذلك وتحسن النية فيه، لعلك إن يخلص لك صبرك، وإلا فإنما أنت بمنزلة البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك، ثم هدأ فهدأت، فلا هي عقلت ما نزل بها فاحتسبت وصبرت ولا هي صبرت، ولا هي عرفت النعمة حين هدأ ما بها فحمدت الله على ذلك وشكرت» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن بشر بن الحارث قال: (الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الناس) .

وروى أيضاً: عن الشعبي أن شريحاً قال: (إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني) .

وروى ابن أبي الدنيا في الفرج والشدة. قال: أنشدني أحمد بن يحيى الأزدي:

مفتاح باب الفرج الصبر
وكل عسر بعده يسر

والدهر لا يبقى على حاله
والأمر يأتي بعده الأمر

والكره تفنيه الليالي
التي يفنى عليها الخير والشر

وكيف يبقى حال من حاله
يسرع فيها اليوم والشهر

قال ابن القيم في عدة الصابرين: «واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب

بالاستقامة معه وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا . فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه» .

وقال في طريق الهجرتين : «**السبب العاشر** : وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : ثبات شجرة الإيمان في القلب ، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه ، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر ، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له ، وتحريمه لما حرم عليه ، وبغضه له ، ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار ، وامتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم» أهـ .

وقال في عدة الصابرين : «**الصبر ثلاثة أقسام** : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها» .

وقال أيضاً في طريق الهجرتين : «وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة .

الأول : أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار . والواقع شاهد بذلك ، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير .

الأصل الثاني : أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب ، فإن فاتهم الرضا فمعوَّلهم على الصبر ، وعلى الاحتساب ، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ، ومؤنته ، فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء ، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب ، وإن صبروا فكصبر البهائم ، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله : ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ (النساء : ١٠٤) .

فاشتركوا في الألم ، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى .

الأصل الثـالث : أن المؤمن إذا أوذي في الله فـإنه مـحـمـول عنه بحسب طاعتـه وإخلاصه ووجود حقائق الإيمان في قلبه ، حتى يحمل عنه من الأذى ما لـو كان شيء منه على غيره لعجز عـن حمله ، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن ، فإنه يدفع عنه كثيراً من البلاء ، وإذا كان لابد له من شيء منه دفع عنه ثقله ومؤنته ومشقته وتبعته .

الأصل الرابع : أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه ، كان أذى المحب في رضي محبوبه مستحلى غير مسخوط ، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك ، حتى قال قائلهم :

لـئـن ســـــاءني أن نـلـتـنـي بمـســـــاءة

لـقـــــد ســـــرني أني خـطـرت بـبـــــالـك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى ، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه .

الأصل الخامس : أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه دون ما يحصل للمؤمنين بكثير ، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان ، وإن كـان في الظاهر بخلافه .

الأصل السادس : أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته ، أو نقصت ثوابه ، وأنزلت درجته ، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر ، وعلو المنزلة ، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه ، كما قال النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له» .

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته ، ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأقرب إليهم فالأقرب ، يبتلى المرء حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة .

الأصل السابع : أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه ، وغلبته له ، وأذاه له في بعض الأحيان : أمر لازم ، لابد منه ، وهو كالحر الشديد ، والبرد الشديد ، والأمراض والهموم والغموم ، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار ، حتى للأطفال والبهائم ، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر ، والنفع عن الضر ، واللذة عن الألم ، لكان ذلك عالماً غير هذا ، ونشأة أخرى غير هذه النشأة ، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر ، والألم واللذة ، والنافع والضار ، وإنما يكون تخليص هذا من هذا ، وتمييزه في دار أخرى ، غير هذه الدار ، كما قال تعالى : ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (٣٧)﴾ (الأنفال) .

الأصل الثامن : أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم ، وقهرهم ، وكسرهم لهم أحياناً فيه حكمة عظيمة ، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عزوجل .

فمنها : استخراج عبوديتهم وذلهم لله ، وانكسارهم له ، وافتقارهم إليه ، وسؤالهم نصرهم على أعدائهم ، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا : ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة ، ولا كانت للحق دولة فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غَلَبهم تارة ، وكونهم مغلوبين تارة ، فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم ، وأنابوا إليه ، وخضعوا له ، وانكسروا له وتابوا إليه ، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وجاهدوا عدوه ، ونصروا أولياءه .

ومنها : أنهم لو كانوا دائماً منصورين . غالبين قاهرين . لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول ﷺ فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة ، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة ، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه .

ومنها : أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش والنصب ، وأضدادها ، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع) .أهـ .

وقال في عدة الصابرين : (**لما كان الصبر** : حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ، ونحوها ، كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة ، فمنه الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ولاتضاده الشكوى إلى الله ، كماتقدم في شكاية يعقوب إلى الله من قوله : ﴿**فصبر جميل**﴾ .

وأما إخبار المخلوق بالحال : : فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر . كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه ، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : «**كيف نجدك**» وهذا استخبار منه واستعلام بحاله .

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر فيه روايتان عن الإمام أحمد .

والتحقيق أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روى في أثر : أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى .

وقال شقيق البلخي : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً) .أهـ .

وقال أيضاً في عدة الصابرين : (وقال الحسن : ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجرعة غيظ ردها بحلم .

وقال عبدالله بن المبارك : أخبرنا عبدالله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، واحتسابه عند الله ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

فقوله : (اعتراف العبد لله بما أصاب منه) كأنه تفسير لقوله : (إنا لله) فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد .

وقوله : «**راجياً به ما عند الله)** كأنه تفسير قوله : ﴿**وإن إليه راجعون**﴾ أي : نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة .

وقوله : (وقد يجزع الرجل وهو يتجلد) أي ليس الصبر بالتجلد ، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ، ورد اللسان عن الشكوى ، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر .

وقال يونس بن زيد : سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمن : ما منتهى الصبر؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه .

قال قيس بن الحجاج في قول الله تعالى : ﴿**فاصبر صبراً جميلاً**﴾ قال : أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو .

وقال عمرو بن دينار : قال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني الحسين بن عبدالعزيز الحروزي : قد مات ابن لي نفيس فقلت لأمه : اتقي الله واحتسبيه واصبري فقالت : مصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع .

قال ابن أبي الدنيا : وأخبرني عمر بن بكير عن شيخ من قريش قال : مات الحسن بن الحصين أبوعبيد الله بن الحسن وعبيدالله يومئذ قاض على البصرة وأميراً فكثر من يعزيه ، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره . فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع .

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي : كان سعيد بن جبير يعزيني في ابني فرآني أطوف بالبيت متقنعاً فكشف القناع عن رأسي وقال : الاستكانة من الجزع .

قال الله تعالى عن يعقوب : ﴿**وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾ .

قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيرا .

وقال حماد بن سلمة : عن علي بن زيد يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «**ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان**» .

وقال بكر بن عبدالله المزني : كان يقال : من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة .

وقال ثابت : أصيب عبدالله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه ريحاً ، فذكرت له ما رأيت فقال : تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء والله يا أبا محمد لو كانت لي الدنيا كلها ثم أخذها مني ثم ساقني شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمناً لتلك الشربة .

وذكر أن : (من بث فلم يصبر)[1]

ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يرجف فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون فقال : مه لا تعلم بهذا أحداً ، وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد .

---

(١) قلت : وفيه قول نبي الله يعقوب عليه السلام ﴿إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله﴾ .

وقال مغيرة : شكى الأحنف إلى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه ، فقال : ما تكرر علي لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد) .أهـ .

فصل

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين : (الثاني والأربعون : أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء ، وابتلاءه إياه عافية .

قال سفيان الثوري : منعه عطاء ، وذلك : أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختياراً وحسن نظر .

وهذا كما قال فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له ساءه ذلك القضاء أو سره ، فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء ، وإن كان في صورة المنع ونعمة وإن كانت في صورة محنة وبلاؤه وعافية وإن كان في صورة بلية ، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل وكان ملائماً لطبعه ، ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لعد المنع نعمة والبلاء رحمة وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية ، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى ، وكان في حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة ، وهذه كانت حال السلف ، فالعاقل الراضي : من يعد البلاء عافية والمنع نعمة والفقر غنى .

فالراضي : هو الذي يعد نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه .

كما قال بعض العارفين : يا ابن آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب وقد قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

وقد قال بعض العارفين : ارض عن الله في جميع ما يفعله بك فإنه ما منعك إلا ليعطيك ، ولا ابتلاك إلا ليعافيك ، ولا أمرضك إلا ليشفيك ، ولا أماتك إلا ليحييك ، فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين فتسقط من عينه .

والثالث والأربعون : أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء والمظهر لكل شيء ، والمالك لكل شيء ، هو الذي يخلق ما يشاء ويختار ، وليس للعبد أن يختار عليه ، وليس لأحد معه اختيار ولا يشرك في حكمه أحداً ، والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، فهو سبحانه الذي اختار وجوده واختار أن يكون كما قدره له وقضاه : من عافية وبلاء وغنى وفقر وعز وذل ونباهة وخمول ، فكما تفرد سبحانه بالخلق تفرد بالاختيار والتدبير وليس للعبد شيء من ذلك فإن الأمر كله لله ، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ . فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله ، وليس له من الأمر قليل ولا كثير لم يكن له معول بعد ذلك غير الرضى بمواقع الأقدار وما يجري به من ربه الاختيار .

الرابع والأربعون : أن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ، لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه قال الله تعالى : ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ ، بعد قوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٧٢)﴾ (التوبة) ، وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا .

السادس والأربعون : أن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات فإن عجز العبد عنه : حطه إلى المقام الوسط كما قال : أعبد الله كأنك تراه فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال فإن لم تكن تراه فإنه يراك فحطه عند العجز عن المقام عن المقام الأول إلى المقام الثاني وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء ، وكذا الحديث الآخر : «إن استطعت أن تعمل لله بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً» .

فرفعه إلى أعلى المقامات ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى .

فالأول : مقام الإحسان والذي حطه إليه : مقام الإيمان وليس دون ذلك إلا مقام الخسران .

والسابع والأربعون : أنه أثنى على الراضين بمر القضاء بالحكم والعلم والفقه والقرب من درجة النبوة ، كما في حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ فقال : «ما أنتم» فقالوا : مؤمنون فقال : «ما علامة إيمانكم» ، فقالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضى بمر القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال : «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» .

الثامن والأربعون : أن الرضى آخذ بزمام مقامات الدين كلها ، وهو روحها وحياتها ، فإنه روح التوكل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة وصحة المحب ، ودليل صدق المحبة وروح الشكر ودليله .

قال الربيع بن أنس : علامة حب الله : كثرة ذكره فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره ، وعلامة الدين : الإخلاص لله في السر والعلانية ، وعلامة الشكر الرضى بقدر الله والتسليم لقضائه .

وقال أحمد بن أبي الحواري : ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي أول من يدعى إلى الجنة الحمادون فقال : (ويحك ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصى عليك إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين ، إنما الحمد : أن تحمده وقلبك مسلم راض) .

وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه (من رضي بما أنزل من السماء إلى الأرض غفر له) .

وفي أثر مرفوع : «من خير ما أعطي العبد : الرضى بما قسم الله له» .

وفي أثر آخر : «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه» .

وفي أثر : «إن بني إسرائيل : سألوا موسى أن يسأل ربه أمراً إذا هم فعلوا رضي عنهم فقال موسى : رب إنك تسمع ما يقولون فقال : قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم» .

وفي أثر آخر عن النبي ﷺ : «**من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث ينزله العبد من نفسه**» .

الخمسون : أن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى . . . ، ولهذا سمى بعض العارفين الرضى : حسن الخلق مع الله ، فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه وحذف فضول الكلام الذي تقدح في حسن خلقه ، فلا يقول : الفقر بلاء ، والعيال هم وغم ، ولا يسمى شيئاً قضاه الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى ، فإن هذا كله ينافي رضاه .

وفي أثر إلهي : (ما لأوليائي والهم بالدنيا ، إن الهم بالدنيا يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم) .

وقيل : أكثر الناس هماً بالدنيا أكثرهم هماً في الآخرة ، وأقلهم هماً بالدنيا أقلهم هماً في الآخرة ، فالإيمان بالقدر والرضى به : يذهب عن العبد الهم والغم والحزن .

الثالث والخمسون : أن الرضى يخلصه من عيب ما لم يعبه الله ، ومن ذم ما لم يذمه الله ، فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب ، وذمه بأنواع المذام ، وذلك منه قلة حياء من الله ، وذم لما ليس له ذنب وعيب لخلقه ، وذلك يسقط العبد من عين ربه ، ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعبته وذممته لكنت متعرضاً لمقته وإهانته ، ومستدعياً منه ، أن يقطع ذلك عنك .

وقد قال بعض العارفين : إن ذم المصنوع وعيبه إذا لم يذمه صانعه غيبة له وقدح فيه .

الرابع والخمسون : أن النبي ﷺ سأل الله الرضى بالقضاء كما في المسند والسنن : «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين**» .

فسمعت ابن تيمية يقول : سأله الرضى بعد القضاء ، لأنه حينئذ تبين حقيقة

الرضى ، وأما الرضى قبله : فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه ، وإنما يتحقق الرضى بعده .

السادس والخمسون : إن الرضى يفرغ قلب العبد ويقلل همه وغمه ، فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها ، كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي وكان من العلماء قال : قلت لعابد : أوصني قال : (ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك فهو أحرى أن يفرغ قلبك ويقلل همك ، وإياك أن تسخط ذلك فيحل بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم) .

وقال بعض السلف : ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش ، فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم .

وقال أبو العباس بن عطاء : (الفرح في تدبير الله لنا . والشقاء كله في تدبيرنا) .

السابع والخمسون : أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير ، إما بقالبه وإما بقلبه وحاله ، ولوم المقادير لوم لمقدرها ، وكذلك يقع في لوم الخلق والله ، والناس يلومونه فلا يزال لائماً ملوماً ، وهذا مناف للعبودية .

قال أنس رضي الله عنه : (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ، ولا قال لي لشيء كان : ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن : ليته كان ، وكان بعض أهله إذا لامني يقول : «دعوه ، فلو قضى شيء لكان» .

وقوله : لو قضى شيء لكان ، يتناول أمرين أحدهما : ما لم يوجد من مراد العبد ، والثاني : ما وجد مما يكرهه ، وهو يتناول فوات المحبوب وحصول المكروه ، فلو قضى الله لكان ، ولو قضى خلاف الآخر لكان ، فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء فعبودية العبد : أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه وهذا موجب العبودية ومقتضاها يوضحه .

الثامن والخمسون : أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضى الرب تعالى فهذا رضيه لعبده فقدره ، وهذا لم يرضه له فلم يقدره ، فكمال الموافقة : أن يستويا بالنسبة إلى العبد فيرضى ما رضيه له ربه في الحالين .

الستون : أن المحبة والإخلاص والإنابة : لا تقوم إلا على ساق الرضى ، فالمحب راض عن حبيبه في كل حاله ، وقد كان عمران بن حصين رضي الله عنه استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره مدة طويلة لا يقوم ولا يقعد ، وقد نقب له في سريره موضع لحاجته ، فدخل عليه مطرف بن عبدالله الشخير فجعل يبكي لما رأى من حاله فقال له عمران : «لم تبكي»؟

فقال : لأني أراك على هذه الحال الفظيعة .

فقال : «لا تبك فإن أحبه إلي أحبه إليه ، وقال : أخبرك بشيء لعل الله أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت : إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتسلم عليَّ فأسمع تسليمها» .

وقال بعض العارفين : ذنب أذنبته أنا أبكي عليه ثلاثين سنة . قيل : وما هو قال : قلت لشيء قضاه الله : ليته لم يقضه أو ليته لم يكن .

وقال بعض السلف : لو قرض لحمي بالمقاريض كان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله : ليته لم يقضه) .أهـ .

باب ما جاء في
مراقبة الله عز وجل وحفظ أوامره

قال الله تعالى : ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)**﴾ (الشعراء) . وقال تعالى : ﴿**إن الله كان عليكم رقيبا**﴾ . وقال الله تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام : ﴿**قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ(٤٦)**﴾ (طه) . وقال الله تعالى : ﴿**أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)**﴾ (البلد) . وقال الله تعالى : ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤)**﴾ (العلق) . وقال الله تعالى : ﴿**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)**﴾ (التوبة) . وقال الله تعالى : ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)**﴾ (الحديد) . وقال الله تعالى : ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)**﴾ (البقرة) .

وروى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كما في حديث : «**الإسلام والإيمان والإحسان**» ، عن النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان ، فقال : «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» .

وروى أحمد في مسنده عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : «**اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن**» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» .

وروى الترمذي في سننه وأحمد في مسنده عن ابن عباس ، قال : «**كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : «يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ**

الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف» . قال : هذا حديث حسن صحيح .

وروى ابن عساكر في تاريخه عن محمد بن المبارك أنه سئل : ما علامة المحبة لله؟ فقال : «المراقبة للمحبوب ، والتحري لمرضاته» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن الجنيد أنه قال : «من راقب الله في السر حرست جوارحه» .

وقل بعض العارفين : راود رجل امرأة في فلاة ليلاً فأبت ، فقال لها : ما يرانا إلا الكواكب ، فقالت : فأين مكوكبها؟ !

وأكره رجلٌ امرأة على نفسها ، وأمرها بغلق الأبواب ، فغلقت ، فقال لها : هل بقي باب لم تغلقيه؟ قالت : نعم ، الباب الذي بيننا وبين الله تعالى . فلم يتعرَّض لها .

وقال الحارث المحاسبي : المراقبة علم القلب بقرب الرب . كلما قويت المعرفة بالله قوي الحياء من قربه ونظره .

وقد وصَّى النبي ﷺ فيما أخرجه الطبراني - رجلاً أن يستحيي من الله كما يستحيي من رجل من صالح عشيرته لا يفارقه .

يقول ابن القيم في المدارج : (المراقبة : دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ، ناظر إليه ، سامع لقوله ، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة ، وكل نفس وكل طرفة عين ، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات . فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين .

قال الجريري : من لم يُحكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة : لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري : إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك . ولا يغرنك اجتماعهم عليك . فإنهم يراقبون ظاهرك . والله يراقب باطنك .

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر : سبب لحفظها في حركات الظواهر . فمن راقب الله في سره ، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته .

والمراقبة : هي التعبد باسمه «الرقيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير» فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبد بمقتضاها : حصلت له المراقبة ، والله أعلم) .أهـ .

باب ما جاء في اجتناب الفواحش
ما ظهر منها وما بطن

يقول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ (الأعراف) . ويقول الله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ (الأنعام) . ويقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾ (الشورى) . ويقول الله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ (الإسراء) . ويقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)﴾ (المؤمنون) . ويقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾ (الفرقان) .

روى الطبراني في الأوسط عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال : «**عُفُّوا تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبرّكم أبناؤكم ، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عُذره ، لم يرد علي الحوض**» .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «**من حفظ ما بين فمه وفرجه دخل الجنة**» .

وروى عبدالرزاق في مصنفه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن الزبير أن النبي ﷺ قال : «**من ضمن لي ستاً ضمنت له الجنة**» ، قالوا : ما هن يا رسول الله؟ قال : «**إذا حدث صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا أؤتمن أدى ، ومن غض بصره ، وحفظ فرجه ، وكف يده ، أو قال : لسانه**» .

وروى الترمذي في سننه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولكن التوبة معروضة**» .

قال أبو عيسى الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة ، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان**» .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»

وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ ـ كما في حديث أصحاب الغار ـ وفيه قول ثالثهم : «**اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنةُ عم من أحب الناس إليَّ ، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلى أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرت ، فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها فقالت اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقّه ، فقمت وتركتُ المائة دينار ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، ففرّج الله عنهم فخرجوا**» .

وروى أحمد في مسنده عن أبي أمامة قال : «**إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لي بالزنا ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه ، فقال : ادنه فدنا منه قريباً ، قال : فجلس ، قال : أتحبه لأمك؟ قال : لا ، والله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال : أفتحبه لابنتك؟ قال : لا ، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال : أفتحبه لأختك؟ قال : لا ، والله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال : أفتحبه لعمتك؟ قال : لا ، والله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال : أفتحبه لخالتك؟**

قال : لا ، والله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم ، قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهِّر قلبه ، وحصِّن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء» .

وروى البخاري ـ كما في حديث منام النبي ﷺ ـ الذي يرويه سمرة بن جندب . وفيه أنه ﷺ جاءه جبريل وميكائيل . . قال : «**فانطلقا على مثل التنور**» . **قال : فأحسب أنه كان يقول : «فإذا فيه لغط وأصوات» . قال : «فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عُراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا»** الحديث .

وفي آخره ، قال جبريل للنبي ﷺ : «**وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزواني**» .

وأخرج البخاري في الأدب والبيهقي عن سهل بن سعد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان : الفم والفرج**» .

وروى الطبراني عن عبدالله بن بُسر عن النبي ﷺ : «**إن الزناة يأتون تشتعل وجوههم ناراً**» .

وروى البزار عن بريدة ، عن النبي ﷺ فيما روي عنه : «**إن فروج الزناة ليؤذي أهل النار نتن ريحها**» .

وروى ابن حبان في صحيحه وأبو يعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ : «**ما ظهر في قوم الزنى والربا إلا أحلّوا بأنفسهم عقاب الله جل وعلا**» .

وروى مالك في موطئه ، عن عبدالله بن عباس ، أنه قال : «**ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقي في قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنى في قوم قط إلا كثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم ، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو**» .

وروى البيهقي في الزهد عن أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت أبا سليمان

يقول : «من صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له» .

يقول ابن القيم في طريق الهجرتين : (وأيضاً فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيها على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله وإيثاراً لمرضاته وطلباً للزلفى لديه والقرب منه ، وأيضاً فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانية ، بل كانت ملكية ، فإن الله سبحانه خلق خلقه أطواراً .

فخلق الملائكة عقولاً لا شهوات لها ، ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف ما يراد من مادة نورية لا تقتضي شيئاً من الآثار والطبائع المذمومة .

وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها .

وخلق الثقلين الجن والإنس وركب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها ، وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء ، وهم المعرضون للثواب والعقاب ، ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة واحدة وخلق واحد ولم يفاوت بينهم ، لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الإلهية) .أهـ .

وقال في إغاثة اللهفان : (فلو لقى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابه بالشرك ، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، فإنه يتضمن من محبة الله تعالى وإجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ، ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ، ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضة ، والدافع لها قوى فلا تثبت معه ، ولكن نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرهما من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جداً ، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاء ، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر ، وكلما كان أعظم

إخلاصاً كان منها أبعد ، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف) .

وقال : (فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيب ، لا يصعد إليه إلا طيب ، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً ، ولهذا قال المسيح عليه السلام فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد : «لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء» .

ولما كانت هذا حال الزنا كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿**الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٣﴾﴾ (النور) .

وقال أيضاً رحمه الله : (ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك ، وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبته بعشق الصور أشد ، وكلما كان أكثر إخلاصاً وأشد توحيداً ، كان أبعد من عشق الصور ، ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق ، لشركها ، ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام بإخلاصه ، قال تعالى : ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف) . فالسوء : العشق ، والفحشاء : الزنى ، فالمخلص قد خلص حبه لله ، فخلّصه الله من فتنة عشق الصور ، والمشرك قلبه متعلق بغير الله ، لم يخلص توحيده وحبه لله عز وجل) .أهـ .

باب ما جاء في غض البصر وما يورثه الله عزوجل بسببه من النور في قلب المؤمن

يقول الله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (النور) . ويقول الله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء) . ويقول الله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ (غافر) .

روى مسلم في صحيحه ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «**إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» .

وروى مسلم والبخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى ، مدرك ذلك لا محالة . فالعينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخُطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه**» .

وروى مسلم عن جرير رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال : «**اصرف بصرك**» .

وروى أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال : «**اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم**» .

وأخرج أحمد والنسائي في السنن الكبرى والدارمي والبيهقي والطبراني والحاكم وصححه عن أبي ريحانة قال : قال رسول الله ﷺ : «**حرمت النار على عين دمعت من**

خشية الله ، حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين فقئت في سبيل الله» .

وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله ، وعيناً سهرت في سبيل الله ، وعيناً أخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله**» .

وروى الطبراني والحاكم عن عبدالله بن مسعود ، فيما رُوي عن النبي ﷺ أنه يروى عن الله عز وجل : «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه**» .

وأخرج أحمد والحكيم في نوادر الأصول وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : «ما من مسلم ينظر إلى امرأة أول رمقة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه» .

وروى ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار ، قال : كان داود عليه السلام يقول : (أيها الناس : النساء شجرة مرة ، فإذا مررن بكم فغضوا أعينكم واذكروا معادكم ، وكان يقول : رب أمد عيني بالدموع ، وجبهتي بالسجود ، وركبتي بالركوع ، وضعفي بالقوة ، حتى أبلغ رضاك علي ، سبحان خالق النور) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال موسى بن عمران عليه السلام :«**يا ربِّ من يسكن غداً في حظيرتك ويستظل بظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك؟ فقال : يا موسى أولئك الذين لا تنظر أعينهم في الزنى ، ولا يبلغون في أموالهم الربا ، ولا يأخذون على أحكامهم الرشى ، طوبى لهم وحسن مآب**» .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ قال : «الرجل يكون في القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها» .

وروى هناد بن السري عن عبدالله بن أبي الهذيل قال : (دخل رجل مع ابن مسعود بيت رجل فجعل الرجل ينظر إلى امرأة في البيت فقال له ابن مسعود : لأن تفقأ عيناك خير لك مما أراك تصنع) .

وجاء في تفسير القرطبي فيما روي أيضاً عن ابن عباس في قوله ﴿**وما تخفي الصدور**﴾ (أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا) .

وروى ابن رجب في جامعه عن الجنيد أنه سئل عما يستعان به على غض البصر؟ قال : بعلمك أن نَظَرَ الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره .

وروى أحمد والترمذي عن عبدالله بن مسعود قال : «**قال رسول الله ﷺ ذات يوم : استحيوا من الله عزَّ وجلَّ حق الحياء**» قال : قلنا : يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله ، قال : **ليس ذلك ولكن من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، وليحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء**» .

وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد بن يزيد ، يقول : إن رجلاً قال : يا رسول الله ﷺ أوصني . فقال ﷺ : «**أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل كما تستحي رجلاً صالحاً من قومك**» .

وقال بعض السلف : لا تجعل الله أهون الناظرين إليك .

وروى محمد بن جعفر الخرائطي عن مالك بن دينار قال : قال نبي الله داود ـ عليه السلام ـ «يا معشر الأبناء ، تعالوا حتى أعلمكم خشية الله ، أيما عبد منكم أحب أن يحيا ويرى الأيام الصالحة ، فليحفظ عينيه أن تنظر إلى سوء ، ولسانه أن ينطق بالإفك» .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : (لهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر :

إحداها : حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره وتركه لله تعالى فإن من ترك شيئا لله عوضه الله تعالى خيرا منه والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة والعين رائد القلب فيبعث رائده لنظر ما هناك فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقا إليه وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده كما قيل :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا

لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر

عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة فمن أطلق لحظاته دامت حسراته فإن النظر يولد المحبة فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه ، ثم تقوى فتصير صبابة ينصب إليه القلب بكليته ، ثم تقوى فتصير غراما يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه ثم يقوى فيصير عشقا وهو الحب المفرط ، ثم يقوى فيصير شغفا وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله ، ثم يقوى فيصير تتيما والتتيم التعبد ومنه تيمه الحب إذا عَبَّده وتيم الله عبد الله فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقع القلب في الأسر فيصير أسيرا بعد أن كان ملكاً ، ومسجوناً بعد أن كان مطلقا يتظلم من الطرف ويشكوه والطرف يقول : أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتني ، وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له ، فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن ينعقد قلبه لغيره قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام .

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف) .

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج ويوسف عليه السلام لما كان مخلصاً لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شاباً عزباً غريباً مملوكاً .

الفائدة الثانية في غض البصر : نور القلب وصحة الفراسة . قال أبو شجاع الكرماني : من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وكف نفسه عن الشهوات وغض بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة ، وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ثم قال بعد ذلك : ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾ (الحجر : ٧٥) .

وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة ، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ (النور : ٣٥) .

وسر هذا : أن الجزاء من جنس العمل فمن غض بصره عما حرم الله تعالى عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه ، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى ، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه وإذا صدأت لم تنطبع فيها صور المعلومات فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون .

الفائدة الثالثة : قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة كما أعطاه بنوره سلطان الحجة فيجمع له بين السلطانين ويهرب الشيطان منه كما في الأثر : «**إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله**») .أهـ .

وقال في عدة الصابرين : (**الثاني** : أن يتجنب محرك الطلب وهو النظر فليقصر لجام طرفه ما أمكنه ، فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر ، والنظر يحرك القلب بالشهوة ، وفي المسند عنه ﷺ : «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس**» .

وهذا السهم يشرده إبليس نحو القلب ولا يصادق جُنَّة دونه ، وليس الـجُنَّة إلا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي ، فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور ، فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم ، وإن نصبت قلبك غرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة) .أهـ .

وقال في مفتاح دار السعادة : (وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال : قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره ، فالقلب الغافل مأوى الشيطان فإنه وسواس خنّاس قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله ، فهو دائماً بني الوسوسة والخنس .

وقال عروة بن رويم : إن المسيح ﷺ سأل ربه أن يُريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلّى له فإذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه فمنّاه وحدثه ، وقد روي في هذا ا المعنى حديث مرفوع ، فهو دائماً يترقب غفلة العبد فيبذر في قلبه بذر الأماني والشهوات والخيالات الباطلة فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء ، ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطي القلب ويعميه) .أهـ .

باب ما جاء في ذكر الله سبحانه وقوله سبحانه في الحديث القدسي: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»

يقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾ (الأحزاب) . ويقول الله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ (البقرة) . وقال الله تعالى : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾ (الأعراف) . وقال الله تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾ (النساء) . وقال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ (الرعد) . وقال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)﴾ (المنافقون) . وقال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)﴾ (الأنفال) .

روى أحمد في مسنده عن كريمة ابن الخشخاش المزنية إنها حدّثته قالت : حدثنا أبوهريرة ونحن في بيت هذه ـ يعني أم الدرداء ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يأثر عن ربه عز وجل أنه قال : «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**» .

وروى مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم ، وإن تقرب مني شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**» .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت**» .

وروى الترمذي وأحمد عن عبدالله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله : إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال : «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**» .

وروى أحمد في مسنده عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان؟ قال : «**أن تحب لله وتبغض لله ، وتعمل لسانك في ذكر الله**» قال : وماذا يا رسول الله؟ قال : «**وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن تقل خيراً أو تصمت**» .

وروى الترمذي في سننه عن أم حبيبة زوج النبي ، عن النبي ﷺ قال : «**كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف ، أو نهي عن المنكر ، أو ذكر الله**» .

وروى البيهقي في السنن الكبرى والدارمي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا تمنوا لقاء العدو ، وسلوا العافية ، فإن لقيتموهم فاثبتوا ، وأكثروا ذكر الله ، فإن أجلبوا وصيَّحوا فعليكم بالصمت**» .

وروى أحمد في مسنده عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال : «**إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات : أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن**» .

وذكر منها : «**وآمركم بذكر الله كثيراً ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل**» .

وروى ابن حبان والنسائي في السنن الكبرى وأبو يعلى بإسناد صحيح عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا أوى الرجلُ إلى فراشه أتاه ملك وشيطان ، فيقول الملك ،**

أختم بخير ، ويقول الشيطان : أختم بشر ، فإن ذكر الله ، ثم نام ، باتت الملائكة تكلؤه ، فإن استيقظ قال الملك : افتح بخير ، وقال الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذي رد علي نفسي ، ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا» إلى آخر الآية . «الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فإن وقع من سريره فمات ، دخل الجنة» .

وروى أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : «ما من مسلم يبيت على ذكر الله طاهراً فيتعار من الليل ، فيسأل الله عز وجل خيراً من أمر الدنيا والآخرة ، إلا أعطاه إيّاه» .

وروى الترمذي في سننه عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تكثر الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي» .

وروى مالك في موطئه وابن أبي شيبة عن نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام أنه كان يقول : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مُبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية» .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبدالله بن الحارث قال : «أوحى الله إلى داود أن أحبني وأحب أحبائي ، وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب أحبك ، وأحب أحباءك ، فكيف أحببك إلى عبادك ، قال : اذكروني لهم فإنهم لن يذكروا مني إلا خيراً» .

وروى أيضاً في مصنفه عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله» .

وروى ابن أبي الدنيا ، وأبويعلى ، والبزار ، والطبراني ، والبيهقي ، والحاكم ، وصححه عن جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : «يا أيها

الناس : إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض ، فارتعوا في رياض الجنة» قالوا : وأين رياض الجنة؟ قال : «**مجالس الذكر فأغدوا ، أو روحوا في ذكر الله ، وذكروه أنفسكم ، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه**» .

وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «**ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا عن غير ذكر الله إلا تفرقوا عن مثل جيفة حمار ، وكان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة**» .

وأخرج البيهقي عن أبي ذر قال : (قلت يا رسول الله أوصني . قال : أوصيك بتقوى الله ، فإنه أزين لأمرك كله ، قلت : زدني ـ قال : عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض ، قلت : زدني ـ قال : عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك . قلت : زدني ، قال : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . قلت : زدني ـ قال : قل الحق ولو كان مُراً ، قلت : زدني ـ قال : لا تخف في الله لومة لائم ، قلت : زدني ـ قال : ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك) .

وروى البيهقي في السنن الكبرى عن ابن مسعود ، قال : «**أكثروا ذكر الله عز وجل ، ولا عليك أن لا تصحب أحداً إلا من أعانك على ذكر الله عز وجل**» .

وروى محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة ، عن الربيع بن أنس عن بعض أصحابه قال : (علامة حب الله كثرة ذكره ، وعلامة الدين الإخلاص لله ، وعلامة العلم الخشية لله ، وعلامة الشكر الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره) .

وذكر عن الجريري : أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته ، فقال : كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وفنيت تلك العبارات ، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات .

باب ما جاء في قرب الله سبحانه من عبده المؤمن

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق) . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (البقرة) . وقال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود) . وقال تعالى : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأعراف) . وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ (سبأ) .

روى أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه ، عن أبي موسى الأشعري قال : «**كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط في واد إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا رسول الله ﷺ فقال : «أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم ما تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، يا عبدالله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ، لا حول ولا قوة إلا بالله**» .

وفي رواية البخاري قال أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : «**كنا مع رسول الله ﷺ ، فكنا إذا أشرفنا على واد هلّلنا وكبّرنا ، وارتفعت أصواتنا ، فقال النبي ﷺ : «يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب ، تبارك اسمه ، وتعالى جدّه**» .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء**» .

وروى الترمذي في سننه عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ يقول حدثني عمرو بن عبسة أنه سمع النبي ﷺ يقول : «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن**»

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «نزل الله من ابن آدم أرفع المنازل هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا» .

وأخرج ابن المنذر عن جويبر ـ رضي الله عنه ـ قال : سألت الضحاك عن قوله : ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ ، قال : (ليس شيء أقرب إلى ابن آدم من حبل الوريد والله أقرب إليه منه) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿**من حبل الوريد**﴾ قال : (عرق العنق) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله : ﴿**من حبل الوريد**﴾ قال : (نياط القلب وما حمل) .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أي النبي ﷺ كان يقول : «**اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان . أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين واغننا من الفقر**» .

يقول ابن القيم في طريق الهجرتين : (هو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء ، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء ، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه ، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه ، وهو محيط به حيث لا

يحيط الشيء بنفسه وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة نفسه ، فهذا أقرب لإحاطة العامة .

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه ، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى : ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ (البقرة :١٨٦) ، فهذا قربه من داعيه ، وقال تعالى : ﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾ ، فوجد الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة «إيذاناً» بقربه تعالى من المحسنين ، فكأنه قال : إن الله برحمته قريب من المحسنين ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» ، و«أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف ا لليل» ، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون ، وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال : «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، وأقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» فهذا قربه من داعيه وذاكره ، يعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وإن خفضت ، كما يسمعها إذا رفعت ، فإنه سميع قريب .

وهذا القرب هو من لوازم المحبة فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر ، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها ، ويغلب محبوبه على قلبه حتى «كأنه يراه ويشاهده» .

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد ، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء وأقرب إليه من نفسه ، مع كونه ظاهراً ليس فوقه شيء) .أهـ .

وقال أيضاً في طريق الهجرتين : (فما من ظاهر إلا والله فوقه ، وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله ، وما من آخر إلا والله بعده ، فالأول قدَمه ، والآخر دوامه ، وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته ، والباطن قربه ودنوه ، فسبق كلَ شيء بأوليته ، وبقي بعد كل شيء بآخريته ، وعلا على كل شيء بظهوره ، ودنا من كل شيء

ببطونه ، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا يحجب عنه ظاهر باطن بل الباطن له ظاهر ، والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد ، فهو الأول في آخريته ، والآخر في أوليته ، والظاهر في بطونه ، والباطن في ظهوره ، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً) .أهـ .

باب ما جاء في الصدق مع الله عز وجل وقوله سبحانه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ (التوبة). وقال الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾ (الأحزاب). وقال تعالى: ﴿والـم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ (العنكبوت). وقال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)﴾ (المائدة).

روى أحمد في مسنده، عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صادقاً من قلبه، دخل الجنة**».

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر - كما في حديث أصحاب الغار المتقدم - وفيه قال رسول الله ﷺ: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ....» الحديث.

وفي رواية الطبراني: ثم قال النبي ﷺ: «من صدق الله نجا».

وروى النسائي في سننه والبيهقي عن شداد بن الهاد: (**أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم**

قسمه لك النبي فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما هذا؟ قال : «قسمته لك» قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أُرمى إلى ههنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة قال : «إن تصدق الله يصدقك» فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي ﷺ : أهو أهو؟ قالوا : نعم . قال : «صدق الله فصدقه» ، ثم كفَّنه النبي ﷺ في جُبَّة النبي ﷺ ، ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته عليه هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً أنا شهيد عليه» .

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : «عمِّي الذي سُمِّيت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً . قال : فشق عليه ، قال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيبت عنه ، وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ، ليراني الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . قال : فشهد مع رسول الله يوم أحد . قال : فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين؟ فقال : واها لريح الجنة أجده دون أحد : قال : فقاتلهم حتى قتل . قال : فوجد في جسده بضع وثمانون ، من بين ضربة وطعنة ورمية . قال فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه . ونزلت هذه الآية : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ (الأحزاب) . قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه» .

وروى البيهقي في شعب الإيمان وابن المبارك في الجهاد ، عن نعيم بن أبي هند قال : «قال رجل يوم القادسية : اللهم إن تذمه سوداء «يعني امرأته» ، فزوجني اليوم مكانها من الحور العين ، فمروا عليه وهو معانق فارساً ، فَذُكر من عظَمه ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ حتى أتم الآية فماتا جميعاً» .

وروى ابن أبي الدنيا قال : حدثني محمد ، قال : حدثني أحمد بن سهل ، قال :

قال لي أبومعاوية الأسود : (يا أبا علي : من أكثر لله الصدق نديت عيناه ، وأجابته إذا دعاهما) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ : (عليك بإخوان الصدق فَكَثِّر في اكتسابهم ، فإنهم زينة في الرخاء وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تهاون بالحلف فيهينك الله ، ولا تسألنَّ عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من يشتهيه ، وعليك بالصدق ، وإن قتلك الصدق ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله عز وجل ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب) .

وروى البيهقي في الزهد عن أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت أبا سليمان يقول : (من صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له) .

وروى أيضاً في شعب الإيمان عن إبراهيم بن أدهم قال : (ما صدق الله عبداً أحب الشهوة) .

باب ما جاء في الفرح بالله عز وجل ودينه وقوله سبحانه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾

يقول الله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس) .

وقال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ (الرعد) .

روى ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يقول : (فضله : الإسلام ، ورحمته القرآن) .

وروى أيضاً عن قتادة : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (أما فضله : فالإسلام ، وأما رحمته فالقرآن) .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قال : (فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلهم من أهله) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قال : (بكتاب الله والإسلام) .

وأخرج أبو القاسم بن بشران في أماليه عن أنس رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ : «**من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ثم تلا النبي ﷺ** : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من عرض الدنيا من الأموال» .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب رضي الله عنه في الآية قال : (إذا عملت خيراً حمدت الله عليه فأفرح فهو خير مما يجمعون من الدنيا) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما خير ﴿**مما يجمعون**﴾ قال : (من الأموال والحرث والأنعام) .

وأخرج ابن أبي حاتم الطبراني عن أيفع الكلاعي رضي الله عنه قال : «لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه ، خرج عمر رضي الله عنه ومولى له ، فجعل يعد الإبل فإذا هو أكثر من ذلك فجعل عمر رضي الله عنه يقول : الحمد لله ، وجعل مولاه يقول : هذا ـ والله ـ من فضل الله ورحمته . فقال عمر رضي الله عنه : كذبت ليس هذا الذي يقول : ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** (٥٨)﴾» .

وأخرج أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة عن وهب بن منبه قال : (المؤمن مفكر ، مذكر ، مزدجر ، تفكر فَعَلَته السكينة ، فسكن فتواضع ، قنع فلم يهتم ، رفض الشهوات فصار حراً ، ألقى الحسد فصارت له المحبة ، زهد في كل فان فاستكمل العقل ، فقلبه متعلق بهمه وهمه موكل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا لفرحهم ، بل حزنه عليهم سرمد ، فهو دهره محزون ، وفرحه إذا نامت العيون يتلو كتاب الله تعالى يردده على قلبه ، فمرة يفزع قلبه ، ومرة تهمل عيناه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلو) .

لا حزن مع الله أبداً

يقول ابن القيم في طريق الهجرتين : (وقوله «معرفة الله جلا نورها كل ظلمة وكشف سرورها كل غمة» كلام في غاية الحسن فإن من عرف الله أحبه ولا بد ، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات ، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان ، وعمر قلبه بالسرور والأفراح وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب ، **فإنه لا حزن مع الله أبداً** ، ولهذا قال تعالى حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه أبي بكر : «لا تحزن إن الله معنا» ، فدل أنه لا حزن مع الله ، وأن من كان الله معه فما له والحزن ، وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله . فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن ،

ومن فاته الله فبأي شيء يفرح ، قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس) . فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه ، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به من حبيب أو حياة أو مال أو نعمة أو مُلك ، يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله ، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجةفيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقَّاهم الله نضرة وسروراً .

فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، فهذا هو العلم الذي شمَّر إليه أولوا الهمم والعزائم ، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم) .أهـ .

وقال في إغاثة اللفهان : (فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر ، وذوق طعم الإيمان ، ووجد حلاوته ، والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم ، ولما اختلف فيه من الحق ، فهم يتقلبون في نور هداه ، ويمشون به في الناس ، ويرون غيرهم متحيِّراً في الظلمات ، فهم أشد فرحاً بما آتاهم ربهم من الهدى ، قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس) .

فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته .

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن ، واتباع الرسول ، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده ، فإنها الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته ، وطمئنينته) أ .هـ .

وقال أيضاً في كتابه «الروح» : فصل : (والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر ، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ (الرعد : ٣٦) . فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به ، وقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس) . قال أبو سعيد الخدري :

فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله ، وقال هلال بن يساف : فضل الله ورحمته الإسلام الذي هداكم إليه والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون ، وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين فضل الله الإسلام ورحمته القرآن .

فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد ، فإن فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا ، فالفرح بذلك على قدر محبته ، فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له ، فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه ، وله عبودية عجيبة وأثر القلب لا يعبر عنه ، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه بل هو جل عطاياه والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا ، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها ، فهذا شأن فرح القلب وله فرح آخر وهو فرحه بما مَنَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به ، وكلما تمكن في ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصي إن لذة التوبة وفرحتها يزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية .

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ولقد ضرب له رسول ﷺ مثلا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه وهو فرح رجل قد خرج براحته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدها في أرض دوية مهلكة فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيئس منه فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأي في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجر فقال من شدة فرحه اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ! ومضض ومحن ، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب فالحكم لله العلي الكبير .

فصل : وها هنا فرحة أعظم من هذا كله وهي فرحته عند مفارقته الدنيا

إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه وقال له ملك الموت أخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ابشري بروح وريحان ورب غير غضبان أخرجي راضية مرضياً عنك : ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)**﴾ (الفجر) . فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بآيثارها فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه ، ومنه فتح أبواب السماء لها ، وصلاة ملائكة السماء عليها ، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية ، فتفتح ويصلي عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة ، فكيف يقدَّر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت ثم سمعته سبحانه يقول اكتبوا كتابه في عليين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ، ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله ، فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر ، هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش ، وشربه من الحوض ، وأخذه كتابه بيمينه ، وثقل ميزانه ، وبياض وجهه ، وإعطائه النور التام والناس في الظلمة ، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له في الموقف ، وتلقِّي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه .

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ، ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده ، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم) .أهـ .

باب ما جاء في حلاوة الإيمان وهداية القلوب وطمئنينتها وقوله سبحانه: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾ (التغابن). ويقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ (الرعد). وقال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ (الحجرات). وقال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ (النحل).

هذا حال العبد المؤمن. أما الكافر المعرض عن الله تعالى وذكره فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (١٢٧)﴾ (طه).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ (السجدة). وقال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ (الأنعام). وقال الله تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾ (التوبة).

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن**

فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار» .

وروى مسلم في صحيحه عن العباس بن عبدالمطلب ، أن سمع رسول الله ﷺ يقول : «**من ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً**» .

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس ، في الحديث الطويل الذي يرويه أبو سفيان عندما قدم إلى الشام عند ملك الروم فسأله عن أمر النبي ﷺ ودعوته ، قال ابن عباس : (أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له : سألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا . . وكذلك الإيمان ، حين تُخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد) .

وروى ابن عساكر في تاريخه عن نبي الله يحيى عليه السلام أن كان يقول : (**إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين ألا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ثم قال : كم بين النعيمين وكم بينهما**) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال : (**مالي لا أرى حلاوة الإيمان تظهر عليكم ، والذي نفسي بيده لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان لظهر عليه حلاوته ، ما خاف عبد على إيمانه إلا منحه ، وما أمن عبد على إيمانه إلا سلبه**) .

وروى محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» وابن المبارك في «الزهد» عن مجاهد ، قال : قال لي ابن عباس : (يا مجاهد : أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووال في الله ، وعاد في الله ، فإنما تنال ما عند الله بذلك ، ولن يجد عبد حلاوة الإيمان وإن كثر صلاته وصيامه حتى يكون كذلك ، وقد صارت مؤاخاة الناس اليوم أو عامتهم في الدنيا ، وذلك لا يجزئ عن أهله شيئاً ، ثم قرأ ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾ وقرأ : ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (في قوله تعالى : ﴿**فلنحيينه حياة طيبة**﴾ قال : السعادة) .

وروى أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت ، قال : حدثني أبي قال : (دخلت على عُبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني ، فلما أجلسوه ، قال : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبتاه ، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، ثم قال : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار**») .

وروى الطبراني عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : (ثلاث من كن فيه يجد لهن حلاوة الإيمان : ترك المراء في الحق ، والكذب في المزاحة ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه) .

وروى ابن عساكر في تاريخه عن أحمد بن أبي الحواري يقول : سمعت أبا سليمان يقول : (لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره حتى يخرج من الدنيا إلا على ما فاته من لذة طاعة الله فيما مضى من عمره ، لكان ينبغي له أن يبكيه ذلك حتى يخرج من الدنيا ، فقلت : يا أبا سليمان إنما نبكي على ما مضى من وجد لذة الإيمان ، فقال : صدقت .

قال : وسمعته يقول : أهل الطاعة في ليلهم ألذّ من أهل اللهو بلهوهم ، وربما استقبلني الفرح في جوف الليل ، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً) .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : (وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن ، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ومعبودها ووليها ومولاها وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها ، فمحبته نعيم النفوس وحياة

الأرواح وسرور النفوس وقوت القلوب ، ونور العقول وقرة العيون ، وعمارة الباطن فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه ، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة ، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربا بأنسه بالله وحبه له .

وقال آخر : مساكين أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها .

وقال آخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها وبحسب ادراك جمال المحبوب والقرب منه وكلما كانت المحبة أكمل وإدراك المحبوب أتم والقرب منه أوفر كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى .

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف وفيه أرغب وله أحب وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه مالا يمكن التعبير عنه ، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبا لغيره ولا أنسا به ، وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية وذلاً وخضوعاً ورقاً له وحرية عن رق غيره .

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها بل لا تزيده إلا فاقة وقلقا حتى يظفر بما خلق له وهيء له : من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه ، فإن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه كما أن فيه فقراً ذاتياً إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره ، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له .

وإذا عرف هذا فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت أو نقصت أو ذهبت فإنها لو كانت موجودة كاملة لما قدم عليها لذة وشهوة لا نسبة بينها وبينها بوجه ما ، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها ولهذا قال النبي ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» .

فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس وينهاه عما يشعثه وينقصه ، ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصاً لله منيباً إليه مطمئناً بذكره مشتاق قلبه إلى لقائه منصرفاً عن هذه المحرمات لا يلتفت إليها ولا يعول عليها ويرى استبداله بها عما هو فيه كاستبداله البعر الخسيس بالجوهر النفيس وبيعه الذهب بأعقاب الجزر وبيعه المسك بالرجيع .

ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة إنما يصبو إلى ما يناسبه ويميل إلى ما يشاكله ينفر من المطالب العالية واللذات الكاملة كما ينفر الجعل من رائحة الورد ، وشاهدنا من يمسك بأنفه عند وجود رائحة المسك ويتكره بها لما يناله بها من المضرة) .أهـ .

وقال في مفتاح دار السعادة : (قال الله تعالى : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾﴾ (النحل) فهذا خبر أصدق الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين ، بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة ، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان ، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام ، فذلك ممن

ينادي عليه من مكان بعيد ، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلّى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن ورضى بتركها كلها والخروج منها رأسا وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو مُتَحَلٍّ بهذا منشرح الصدر به لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول : فزت ورب الكعبة . ويستطيل الآخر حياته حتى يلقى قوته من يده ويقول : إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى أكلها ، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً . ويقول الآخر مع فقره : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف ، ويقول الآخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً . وقال بعض العارفين : إنه لتمر بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا أنهم لفي عيش طيب ، ومن تأمل قول النبي ﷺ لما نهاهم عن الوصال فقالوا : إنك تواصل . فقال : «أني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني» .

علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها .

وقوله : «صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى» ، وفي رواية : «بالمحل الأعلى» الروح في هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر إلا في وطنها ، وهي جوهر علوي مخلوق من مادة علوية ، وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف فهي دائما تطلب وطنها في المحل الأعلى وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها ، وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخلدت إلى الأرض ، ونسيت معلمها ووطنها الذي لا راحة لها في غيره ، فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقاً ، فلهذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه في المحل الأعلى وفي الحديث المرفوع : «إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول : انظروا إلى عبدي بدنه في الأرض وروحه عندي» رواه تمام وغيره .

وهذا معنى قول بعض السلف القلوب جوَّالة . فقلب حول الحشر ، وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش .

فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها في أعماق البدن واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيأت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ، ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب ، فإذا صحت من سكرها وأفاقت من غمرتها أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب فحينئذ تتقطع حسرات على ما فاتها من كرامة الله وقربه والأنس به والوصول إلى وطنها الذي لا راحة لها إلا فيه .

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في دار غربة كما قال النبي ﷺ : «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» ، ولكنها غربة تنقضي ويصير إلى وطنه ومنزله ، وإنما الغربة التي لا يرجى انقطاعها فهي غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه الذي كان قد هيء وأعد له وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه فأبى إلا اغترابه عنه ومفارقته له ، فتلك غربة لا يرجى إيابها ولا يجبر مصابها ولا تبادر إلى إنكار كون البدن في الدنيا والروح في الملأ الأعلى فَلرُّوح شأن والبدن شأن ، والنبي ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه ، فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه .

وقال أبو الدرداء إذا نام العبدعرج بروحه إلى تحت العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود ، وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسجود .

فهذه والله أعلم هي العلة التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم ، وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم ، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقي والصعود بحسب ذلك التجرد ، وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه في موضع آخر عند محبوبه ، وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف) .أهـ(١) .

---

(١) مفتاح دار السعادة ـ بتصرف .

وقال ـ رحمه الله ـ أيضاً ـ في إغاثة اللهفان : (﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ (الشورى) .

فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة ، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق ، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين ، فهو روح تحيا به القلوب ، ونور تستضيء وتشرق به ، كما قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ (الأنعام) .

أي : أو من كان كافراً ميت القلب ، مغمراً في ظلمة الجهل : فهديناه لرشده ، ووفقناه للإيمان ، وجعلنا قلبه حياً بعد موته ، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته؟

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾ (الأنفال) .

فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان . فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك .

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور . وهذا من أحسن التشبيه ، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم ، فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم فقال الله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾ (فاطر) .

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥)﴾ (غافر) ، في موضعين من كتابه ، وقال : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى) ،لأن حياة الأرواح والقلوب به ، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قبل وحيه ، وعمل به فقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ (النحل) .

فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين .

وقال تعالى ، وقد جمع بين النوعين : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ (الأنعام) .

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج . قال تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ (الزمر) .

فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور ، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور) .أهـ .(١)

وقال رحمه الله في زاد المعاد : (قال الله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الزمر :٢٢) ، وقال تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام :١٢٥)

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر ، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه .

ومنها : النور الذي يقذفه الله في قلب العبد- وهو نور الإيمان- فإنه يشرح الصدر ويوسعه ، ويفرح القلب . فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج ، وصار في أضيق سجن وأصعبه . وقد روى الترمذي في «جامعه» عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح . قالوا : وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله» .

---

(١) إغاثة اللهفان ، بتصرف .

فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور ، وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية ، هذه تشرح الصدر ، وهذه تضيقه .

ومنها : الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته بكل القلب ، والإقبال عليه ، والتنعم بعبادته ، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك ، حتى إنه ليقول أحيانا : إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة ، فإني إذا في عيش طيب . وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر ، وطيب النفس ، ونعيم القلب ، لا يعرفه إلا من له حس به ، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد ، كان الصدر أفسح وأشرح ، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن ، فرؤيتهم قذى عينه ، ومخالطتهم حمى روحه .

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الأعراض عن الله تعالى ، وتعلق القلب بغيره ، والغفلة عن ذكره ، ومحبة سواه ، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير ، فما في الأرض أشقى منه ، ولا أكسف بالاً ، ولا أنكد عيشاً ، ولا أتعب قلباً .

فهما محبتان : محبة هي جنة الدنيا ، وسرور النفس ، ولذة القلب ، ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها ، بل حياتها وقرة عينها ، وهي محبة الله وحده بكل القلب ، وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه .

ومحبة هي عذاب الروح ، و هم النفس ، وسجن القلب ، وضيق الصدر ، وهي سبب الألم والنكد والعناء ، وهي محبة ما سواه سبحانه) .أهـ .

باب من جاء في كفاية الرب عز وجل لعبده المؤمن ونصرته له وقوله ﴿إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾

يقول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧)﴾ (الأعراف). ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ (الحج). وقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)﴾ (الزمر). وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ (المائدة). وقال الله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ (التوبة). وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ (يس). وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ (الإسراء).

وقال الله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)﴾ (المائدة). وقال الله تعالى عند نبيه إبراهيم عليه السلام وإيذاء قومه له: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)﴾ (الأنبياء).

وقال الله تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ

قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ (هود) .

وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون بعدما صدع بالتوحيد : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ (غافر) ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ (يونس) .

وقال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ (آل عمران) .

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس : «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ **قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا :** ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (آل عمران)» .

وروى الترمذي وأحمد ، عن ابن عباس ، قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً ، فقال : «**يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف**» .

وروى البخاري عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن**

سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له منه» .

وروى الطبراني في الدعاء ، عن سلمان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ عن الله عز وجل قال : «**ما من عبد نزلت به نائبة فاعتصم بي دون خلقي إلا أعطيته قبل أن يسألني واستجبت له قبل أن يدعوني**» .

وروى أبو داود في الزهد عن وهب بن منبه قال : قرأت في كتاب أخبر أن الله تبارك وتعالى يقول : «**بعزتي إنه من اعتصم بي وإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي فإني آخذ به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، ثم آكله إلى نفسه**» .

وروى ابن عساكر في تاريخه عن إسحاق بن بشر قال : قال مُقاتل وسعيد : (إن أول من اتخذ المنجنيق نمروذ وذلك أن إبليس جاءهم لما لم يستطيعوا أن يدنوا من النار قال : أنا أدلكم فاتخذ لهم المنجنيق وجيء بإبراهيم فخلعوا ثيابه ، وشدوا قماطه ، فوضع في المنجنيق ، فبكت السموات والأرض والجبال والشمس والسحاب والريح والملائكة كل يقول : يا رب إبراهيم ، عبدك بالنار يحرق فأذن لنا في نصرته ، فقالت النار وبكت : يا رب ، سخرتني لبني آدم وعبدك يحرق بي ، فأوحى إليهم : إن عبدي إياي عبد ، وفي حبي أوذي ، إن دعاني أجبته ، وإن استنصركم انصروه ، فلما رُمي استقبله جبريل بين المنجنيق والنار قال : السلام عليك يا إبراهيم ، أنا جبريل ألك حاجة .

فقال : أما إليك فلا حاجة ، حاجتي إلى الله ربي ، فلما أن قُذف سبقه إسرافيل فسلط النار على قماطه وقال الله تعالى : ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴿٦٩﴾﴾ (الأنبياء) . فلو لم يخلط بالسلام لكان فيها برداً ، ودخل جبريل وأنبت الله حوله روضة خضراء ، وبُسط له بساط من در الجنة ، وأتي بقميص من حلل جنة عدن فألبس وأجري عليه الرزق غدوة وعشاء . إسرافيل عن يمينه ، وجبريل عن يساره حتى رأى الملك الرؤيا ، ورأى ا الناس الرؤيا فأكثروا القول فيه) .

وروى أحمد في مسنده ، حدثنا عبدالله حدثني أبي حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا أبو التياح قال : سأل رجل عبدالرحمن بن خنيش كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين؟ قال : «**جاءت الشياطين إلى رسول الله ﷺ من الأودية وتحدرت عليه من الجبال وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ قال : فرعب قال جعفر : أحسبه قال : جعل يتأخر قال : وجاء جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل ، قال : «ما أقول؟» قال : قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير ، يا رحمن فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله عز وجل**» .

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : «**كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجراً فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة .**

فقال ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني ، فقال إني لا أشفي أحداً إنما يشفى الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك . فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك؟ قال : ربي قال ولك رب غيري

قال : ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ قال : كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ قال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت ، وأضرم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها ، أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام ـ وعند أحمد والنسائي : فقال الصبي ـ : يا أمه اصبري فإنك على الحق» .

وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : عز وجل : ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً**﴾ قال : «كفار قريش ، ﴿**سداً**﴾ غطاء ﴿**فأغشيناهم**﴾ يقول : ألبسنا أبصارهم وغشيناهم ﴿**فهم لا يبصرون**﴾ النبي ﷺ فيؤذونه . وذلك أن أناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه منهم أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، ونفر من بني مخزوم ، فبينا النبي ﷺ قائم يصلي ، فلما سمعوا قراءته أرسلوا الوليد ليقتله ، فانطلق حتى انتهى إلى المكان الذي كان يصلي النبي ﷺ فيه ، فجعل يسمع قراءته ولا يراه ، فانصرف إليهم فأعلمهم ذلك ، فأتاه من بعده أبو جهل ، والوليد ، ونفر منهم ، فلما انتهوا إلى المكان الذي هو فيه يصلي سمعوا قراءته ، فيذهبون إلى الصوت ، فإذا الصوت من خلفهم ، فينتهون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم ، فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلاً ، فذلك قوله : ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً**﴾ إلى آخر الآية ، وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا .

وروى أبو يعلى في مسنده ، والحاكم وصححه ، وابن عساكر ، والبيهقي في دلائل النبوة عن أسماء قالت : «لما نزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول : مذمم أبينا ـ أو أتينا الشك من أبي موسى ـ ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه ، أو قال : معه قال : فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال : إنها لن تراني ، وقرأ قرآنا اعتصم به ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** (٤٥)﴾ (الإسراء) ، قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر ولم تر النبي ﷺ فقالت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني قال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها» .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن محمد ابن كعب قال : «اجتمع قريش وفيهم أبو جهل على باب النبي ﷺ فقالوا على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إن بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، وبعثتم

من بعد موتكم ، فجعلت لكم نار تحرقون فيها ، فخرج رسول الله ﷺ ، وأخذ حفنة من تراب في يده قال : نعم . أقول ذلك وأنت أحدهم ، وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو هذه الآيات : ﴿**يس . والقرآن الحكيم**﴾ إلى قوله : ﴿**فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ، فلم يبق رجل إلا وضع على رأسه تراباً ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، وإذا عليه تراب فقالوا : لقد كان صدقنا الذي حدثنا) .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد والبخار ي ومسلم وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : «اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رجلاً بثلاثة عشر درهماً فقال لعازب : مر البراء فيحمله إلى منزلي . فقال : لا ، حتى تحدثنا كيف صنعت حيث خرج رسول الله ﷺ وأنت معه؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : خرجنا فأدلجنا فأحثثنا يوماً وليلة حتى أظهرنا . . .) وذكر الحديث بطوله إلى قوله : (قال : فارتحلنا والقوم يطلبونا فلم يدركنا منهم إلا سراقة على فرس له ، فقلت : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا فقال : «لا تحزن إن الله معنا» حتى إذا دنا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة ، فقلت : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكيت . . . ! قال : لم تبك . فقلت : أما والله لا أبكي على نفسي ولكني أبكي عليك . فدعا رسول الله ﷺ وقال : «اللهم اكفناه بما شئت» فساخت فرسه إلى بطنها في أرض صلد ووثب عنها ، وقال : يا محمد إن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهماً ، فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا ، وكذا فخذ منها حاجتك ، فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لي فيها ودعا رسول الله ﷺ فأطلق» .

وأخرج البخاري عن سراقة بن مالك رضي الله عنه قال : «خرجت أطلب النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، حتى إذا دنوت منهما عثرت بي فرسي ، فقمت فركبت حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يكثر التلفت ، ساخت يد فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ثم زجرتها

فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان ، فناديتهما بالأمان : فوقفا لي ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهما أنه سيظهر رسول الله ﷺ» .

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال : «لما خرج النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه التفت أبو بكر رضي الله عنه فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يا نبي الله هذا فارس قد لحقنا . فقال اللهم اصرعه ، فصرع عن فرسه فقال : يا نبي الله مرني بما شئت . قال : تقف مكانك لا تتركن أحداً يلحق بنا ، فكان أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ وفي آخر النهار مسلحة له ، وفي ذلك يقول سراقة مخاطباً لأبي جهل :

أبا حكم لو كنت والله شاهداً

لأمر جوادي أن تسيخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمداً

رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

وأخرج أبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وعروة رضي الله عنهما : (أنهم ركبوا في كل وجه يطلبون النبي ﷺ وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون له الجعل العظيم ، وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلعوا فوقه ، وسمع أبو بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ أصواتهم ، وأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهم والخوف ، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ : «لا تحزن إن الله معنا» ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه سكينة من الله فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين : ﴿**وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم**﴾ (التوبة : ٤٠) .

وأخرج ابن شاهين وابن مردويه وابن عساكر عن حبشي بن جنادة قال : (قال أبو

بكر رضي الله عنه : يا رسول الله لو أن أحداً من المشركين رفع قدمه لأبصرنا ، قال : «يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا» .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : حدثني أبوبكر رضي الله عنه قال : «كنت مع النبي ﷺ في الغار ، فرأيت آثار المشركين فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

وأخرج أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : (أن أبا بكر رضي الله عنه رأى رجلاً مواجه الغار فقال : يا رسول الله إن لرائينا ، قال : كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها ، فلم ينشب الرجل أن قعد يبول مستقبلهما ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا) .

يقول ابن جرير في تفسيره : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد للمشركين من عبدة الأوثان : إن وليي ونصيري ومعيني وظهيري عليكم الله الذي نزل الكتاب علي بالحق ، وهو الذي يتولى من صلح عمله بطاعته من خلقه) .

أخرج الأزرقي في أخبار مكة عن سعيب بن المسيب ، أن عمر بن الخطاب ، كان يقول إذا كبر لاستلام الحجر : (بسم الله ، والله أكبر ، على ما هدانا الله ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت ، وباللات والعزى ، وما يدعى من دون الله : ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴿١٩٦﴾﴾ (الأعراف) .

يقول ابن كثير في تفسيره : (يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ، كما قال تعالى : ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ وقال : ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾)أ .هـ .

ويحدث القرطبي عن نفسه كما في تفسيره عند قول الله تعالى : ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ**

الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ (الإسراء) ، وقوله : **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)﴾** (يس) ، قال رحمه الله : (قلت : ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منصور من أعمال قرطبة مثل هذا ، وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا ديبله ، يعنون شيطاناً ، وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك) .أهـ .

يقول ابن القيم كما في بدائع الفوائد : (فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولا بد ، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه ، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع ، وإن مزج مزج له ، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة .

كما قال بعض السلف : من أقبل إلى الله بكليته أقبل الله عليه جملة ، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة .

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين .

قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

السبب الثاني : تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره ، قال تعالى : **﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾** (آل عمران : ١٢٠) .

وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس : «**احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك**» فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟

السبب الرابع : التوكل على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، فإن الله حسبه ، أي كافيه ، ومن كان الله كافيه ، وواقيه ، فلا مطمع فيه لعدو ، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً . وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له ، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال : ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ (الطلاق :٣) .

ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره) .أهـ .

وقال في زاد المعاد :(وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٦٤)﴾ (الأنفال) ، أي : الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد . . . فإن «الحسب» و«الكفاية» لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة ، قال الله تعالى : ﴿**وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** (٦٢)﴾ (الأنفال) .

ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى : ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** (١٧٣)﴾ (آل عمران) .

ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب

رسوله؟ ! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ** ﴿٥٩﴾﴾ (التوبة) .

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله ، كما قال تعالى : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه**﴾ (الحشر : ٥٩) .

وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا : حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال تعالى : ﴿**إنا إلى الله راغبون**﴾ (التوبة : ٥٩) .

ولم يقل : وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿**فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب**﴾ (الانشراح) .

فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده . . . ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ (الزمر : ٣٦) .

فالحسب : هو الكافي ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كاف عبده ، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟ !) أهـ .

باب ما جاء في النهي عن تزكية النفس وقوله ﷺ: «لن ينجو أحد منكم بعمله»

يقول الله تعالى : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾ (النور) . ويقول الله تعالى : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾ (النجم) . ويقول الله تعالى : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣)﴾ (النساء) . ويقول الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾ (النساء) .

روى البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره ، وهو يرتجز برجز عبدالله بن رواحة : «اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلت سكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الأعداء قد بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا» . يرفع بها صوته) . متفق عليه .

وروى مسلم عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا : يا رسول الله ولا أنت؟ قال : «ولا أنا . إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» .

وفي رواية : «لن يدخل الجنة أحداً عمله» .

وروى أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة : عن الحسن ، قال : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه «إذا أحببت أن تحقر عملك ، فتفكر فيما أنعم الله عليك ، وقدر ما عمل الصالحون قبلك ، وقدر عقوبته في الذنوب ، إنما فعل بآدم الذي فعل بأكلة أكلها ، فقال : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ، وإنما لعن إبليس وجعله شيطاناً رجيماً من أجل سجدة أبى أن يسجدها ، وجعل منهم قردة وخنازير من أجل حيتان أصابوها يوم السبت ، وقد نهوا أن يعدوا فيه ، فتفكر في

نعيم الجنة ، وملكها وكرامتها ، فإذا فكرت في هذا كله عرفت نفسك ، وحقرت عملك ، وعلمت أن عملك لن يغني عنك شيئاً إلا أن يتغمدك الله برحمته وبعفوه» .

وروى أحمد عن أبي الجلد . قال : (إن الله تعالى أوحى إلى داود : يا داود أنذر عبادي الصادقين . فلا يعجبن بأنفسهم ، ولا يتّكلن على أعمالهم ، فإن ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه ، وبشّر عبادي الخطائين أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأتجاوز عنه) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان والطبراني ، عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : «ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، وكلمة الحق في الرضا والغضب» .

وروى مسدد عن طلحة بن عبيدالله بن كريز ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه ، ومن قال : أنا عالم فهو جاهل ، ومن قال : أنا في الجنة فهو في النار» .

وروى البيهقي في الشعب ، عن أبي عمرو بن حمدان يقول : وجدت في كتاب أبي سمعت أبا عثمان يقول : «الخوف من الله يوصلك إلى الله ، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله ، واحتقار الناس في نفسك مرض عظيم لا يداوى» .

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي حازم قال : (من رأى أنه خير من غيره فهو مستكبر ، وذلك أن إبليس قال : (أنا خير منه) فكان ذلك استكباراً) .

وروى البيهقي في الشعب عن أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت إسحاق بن خلف يقول : (ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم ليت شعري بما يختم لي . قال : عندها ييأس منه ويقول متى يعجب هذا بعمله) .

وروى أيضاً عن عمرو بن قيس الملائي قال : (قال إبليس ثلاث من كن فيه أدركت فيه حاجتي : من استكتم عمله ، ونسى ذنوبه ، وأعجب برأيه) .

وروى أيضاً عن عطاء بن يسار قال : (تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال : نجوت فقال : ما نجوت وما أمنتك بعد) .

وروى أيضاً عن صالح بن أحمد بن حنبل قال : (لما حضرت أبي الوفاة فجلست عنده والخرقة بيدي أشد بها لحيته قال فجعل يغرق ثم يفيق ويفتح عينيه ويقول بيده هكذا لا بعد لا بعد لا بعد ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له يا أبه إيش هذا الذي لهجت به في هذا الوقت فقال يا بني أما تدري قلت لا فقال إبليس لعنه الله قائم بحذائي عاض على أنامله يقول يا أحمد فتني فأقول لا حتى أموت) .

قال البيهقي رحمه الله : ولأحمد بن حنبل رحمه الله في ذلك سلف .

وروي أيضاً عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم قال : (بينما موسى عليه السلام جالس في بعض مجالسه إذ جاءه إبليس وهو في برنس يتلون عليه ألواناً فلما دنا منه فخلع البرنس ثم أقبل إلى موسى فسلم عليه فقال : من أنت؟ قال : إبليس . قال : أنت فلا مرحباً بك ، وما جاء بك . قال : جئت لأسلم عليك لمكانك من الله ومنزلتك عنده ، قال : فما هذا البرنس؟ قال : به أختطف قلوب بني آدم . قال : فأخبرني ما الذنب الذي إذا أذنب ابن آدم استحوذت عليه؟ قال : إذا أعجبتهُ نفسه ، واستكثر عمله ، ونسي ذنبه ، استحوذت عليه وأوصيك بثلاثة أشياء . قال : وماهي؟ قال : لا تخل بامرأة لاتحل لك فإنه ما خلا الرجل بامرأة لاتحل له إلا كنت أنا صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها ، ولا يعاهد الله عهداً إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء به ، ولا يهمن بصدقة إلا أمضيتها فوالله ما همّ أحد بصدقة إلا كنت أنا صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها ، ثم ولّ وهو يقول : يا ويله ثلاث مرات علم موسى ما يحذره ابن آدم) .

وروى الدارمي عن محمد بن واسع : قال : كان مسلم بن يسار ، يقول : «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم ، وبها يبتغي الشيطان زلته» .

والمراء : الجدال .

وروى أبو داود وأحمد عن أبي أمامة ، قال ، قال رسول الله ﷺ : «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» .

وروى الدارمي عن يحيى بن أبي كثير قال : (قال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه : دع المراء فإن نفعه قليل ، وهو يهيج العداوة بين الإخوان) .

وروى البيهقي في الشعب عن الشعبي قال : (المراء يفسد الصداقة القديمة ، ويحل العقد الوثيقة) .

وروى أيضاً عن الربيع بن سليمان يقول سمعت الشافعي يقول : (المرآء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن) .

وروى أيضاً عن أبي عثمان الحناط . قال : سمعت ذا النون يقول : (ثلاثة من أعلام أعمال الكياسة : ترك المراء والجدال في الدين ، والإقبال على العمل بيسير العلم ، والاشتغال بإصلاح عيوب النفس غافلاً عن عيوب الناس . قال : وثلاثة من أعلام التواضع : تصغير النفس معرفة بالعيب ، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والنصيحة من كل أحد . وثلاثة من أعلام حسن الخلق ، قلة الخلاف على المعاشرين ، وتحسين ما يرد عليهم من أخلاقهم ، وإلزام النفس اللائمة فيما يختلفون فيه كفاً عن معرفة عيوبهم) .

وروى ابن عبدالبر في جامعه ، عن مسروق قال : (كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله .

قال أبو الدرداء : علامة الجهل ثلاث : العجب ، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه ، وأن ينهي عن شيء ويأتيه .

وقال إبراهيم بن الأشعث : سألت الفضيل بن عياض رحمه الله عن التواضع ، فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه .

وقالوا : العجب يهدم المحاسن .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : الإعجاب آفة الألباب .

وقال غيره : إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

ولقد أحسن علي بن ثابت حيث يقول : المال آفته التبذير والنهب ، والعلم آفته الإعجاب والغضب .

وقالوا : من أعجب برأيه ذل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر .

وقالوا : لا ترى المعجب إلا طالباً للرئاسة .

وقال فضيل بن عياض : ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى وتتبع عيوب الناس وكره أن يذكر أحد بخير .

وقال أبو نعيم : والله ما هلك من هلك إلا بحب الرئاسة .

وقال أبو العتاهية : حب الرئاسة أطغى من على الأرض حتى بغى بعضهم فيها على بعض)أهـ .

قال القرطبي : إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله ، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم .

وقال بعض السلف : رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ، ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم ، وَرُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم !

وروى البيهقي في الزهد عن السري أنه قال : (من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس) .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن جده عبدالله بن مصعب قال : قال أبو بكر الصديق لقيس بن عاصم : (صف لنا نفسك . فقال : إن الله يقول : ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ فلست ما أنا بمزكٍ نفسي ، وقد نهاني الله عنه ، فأعجب أبا بكر ذلك منه) .

وقيل لبعض الحكماء ما الصدق القبيح؟ قال : (ثناء المرء على نفسه فإياك أن تتعود ذلك ، واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ، ويوجب مقتك عند الله تعالى ، فإذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد في قدرك عند غيرك ، فانظر إلى أقرانك إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال ، كيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك؟ وكيف تسهم عليه إذا فارقتهم؟ فاعلم أنهم أيضاً في حال تزكيتك نفسك يذمونك في قلوبهم ناجزاً ، وسيظهرونه بألسنتهم إذا فارقتهم) .

وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لحذيفة : «أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ؟ يعني في المنافقين : فيقول : لا . ولا أزكي بعدك أحداً» .

يقول ابن القيم في الجواب الشافي : (فسمعت شيخنا يقول : ليس مراده أني أبرئ غيرك من النفاق ، بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب . فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه) .أهـ .

باب ما جاء في قوله تعالى ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ وقوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾

يقول الله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر) . ويقول الله تعالى : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر :٢) . ويقول الله تعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ (الأعراف) . ويقول الله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (المؤمنون) . ويقول الله تعالى : ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران) . ويقول الله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (الأنعام) . ويقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنفال) .

روى الترمذي عن شهر بن حوشب ، قال : قلت لأم سلمة : «يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت : كان أكثر دعائه : يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك . قالت : فقلت يا رسول الله ! ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال : يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن أشاء أزاغ» .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة قالت : «كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك . قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء . فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ، أما تسمعين قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران) .

ولفظ ابن أبي شيبة : «إذا شاء أن يقلبه إلى هدى قلبه ، وإذا شاء أن يقلبه إلى ضلال قلبه» .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبيدة بن الجراح : أن رسول الله ﷺ قال : «إن قلب ابن آدم مثل قلب العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات» .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص عن أبي موسى قال : «إنما سمي القلب قلباً لتقلبه . وإنما مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض» .

وأخرج أحمد وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : «إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض تقيمها الريح ظهراً لبطن» .

وروى النسائي عن أنس بن مالك ، يقول : قال النبي ﷺ لفاطمة : «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ، أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كلّه ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» .

وروى مسلم عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت . وإليك أنبت . وبك خاصمت . اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ، أن تضلني . أنت الحي الذي لا يموت . والجن والإنس يموتون» .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : (بعث نبي الله موسى بلعام بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله ، وكان مجاب الدعوة وكان من علماء بني إسرائيل ، فكان موسى يقدمه في الشدائد فأقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه ، فأنزل الله ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ (الأعراف : ١٧٥)) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله : ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**﴾ قال : «كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب» .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله تعالى : ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**

فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال : «أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه ﴿**فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ فجعله مثل الكلب» .

وروى البيهقي في الشعب عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : «ما خاف عبد على إيمانه إلا منحه ، وما أمن عبد على إيمانه إلا سلبه» .

وروي عن أبي الخير الديلمي أنه قال : كنت يوماً عند الجنيد رحمة الله عليه فارتعدت فرائصه وتغير لونه وبكى وقال : (ما أخوفني أن يأخذني الله فقال له بعض أصحابنا : تتكلم في درجات الراضين وأحوال المشتاقين فقال له : إياك يا أخي أن تأمن مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

وقال الحسن : (ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق) .

وقال رجل للحسن : أراك طويل البكاء؟ فقال : (أخاف أن يطرحني ولا يبالي) .

وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : (مصر الله بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح ، وفعل . فقال عمر : وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر) .

وروي عن الفضيل بن عياض في قول الله عز وجل : ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾ قال : (أتوا بأعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات . قال الراوي : فرأيت يحيى بن معين بكى) .

وروى البيهقي في الشعب وابن أبي الدنيا عن محمد بن المنكدر أنه لما حضرته الوفاة بكى . فقيل له : ما يبكيك؟ إن كنا لنغبطك لهذا اليوم . قال (أما والله ما أبكي أن أكون أتيت شيئاً ركبته من معاصي الله اجتراء على الله ، ولكني أخاف أن أكون أتيت شيئاً أحسبه هيناً وهو عند الله عظيم . قال وبكى الآخر عند الموت فقيل له مثل ذلك فقال : إني سمعت الله يقول لقوم . ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾ . فأنا أنظر ما ترون والله ما أدري ما يبدو لي) .

وروى ابن أبي الدنيا عن ثابت البناني أنه سئل عن الاستدراج فقال : (ذلك مكر الله بالعباد المضيعين .

قال : فقال يونس : إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وأبقى عليها ثم شكر الله ما أعطاه أعطاه الله أشرف منها ، وإذا ضيع الشكر استدرجه الله ، وكان تضييعه للشكر استدراجاً» .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال : «إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج» . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام : ٤٤) .

وأخرج ابن المنذر عن جعفر قال : (أوحى الله إلى داود ، خفني على كل حال ، وأخوف ما تكون عند تظاهر النعم عليك ، لا أصرعك عندها ، ثم لا أنظر إليك) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار به جهلاً) .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً**﴾ (الأنعام : ٤٤) ، قال : (بغت القوم أمر الله ، ما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعيمهم ، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون) .

يقول ابن القيم في طريق الهجرتين : (إن العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب ، وأنه يحول بين المرء وقلبه ، وأنه تعالى سبحانه كل يوم هو في شأن ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرفع من يشاء ، ويخفض من يشاء ، فما يؤمنه أن يقلب الله قلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد إقامته؟ وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقوله : ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ (آل عمران : ٨) ، فلولا خوف الإزاغة لما سألوه أن لا يزيغ قلوبهم . وكان من دعاء النبي ﷺ : «**اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك ، ومثبت القلوب ، ثبت قلوبنا على دينك**» . وفي الترمذي عنه ﷺ أنه كان يدعو : «**أعوذ بعزتك أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت**» .

وكان من دعائه : «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك**» .

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها ، وذكر المعصية والتوعد عليها ، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو . وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس ، لعلمه بأن الله مقلب القلوب ، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، فإن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه ، كما ثبت عن النبي ﷺ ، وكانت أكثر يمينه : «لا ومقلب القلوب ، لا ومقلب القلوب» ، وقال بعض السلف : القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً .

وقال بعضهم : مثل القلب في سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن ، ويكفي في هذا قوله تعالى : ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ (الأنفال : ٢٤)) . انتهى .

باب ما جاء في صفة العبد المؤمن وقوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾

يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (القصص) . وقال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ (المؤمنون) . وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الشورى) . وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (آل عمران) . وقال تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة : ٨٣) . وقال تعالى : ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ (الإسراء) ، وقال تعالى : ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت) . وقال تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ (الفرقان) .

أخرج عبد بن حميد والبيهقي وابن أبي الدنيا عن الحسن قال : «كان يقال : ابن آدم عفّ عن محارم الله تكن عابداً ، وأرض بما قسم الله لك تكن غنياً ، وأحسن مجاورة من جاورك من الناس تكن مسلماً ، وصاحب الناس بالذي تحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً» : يا ابن آدم خالط الناس وزايلهم : خالطهم ببدنك ، وزايلهم بقلبك وعملك ، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان : ٦٣) .

قال الحسن : و«الهون» في كلام العرب : اللين والسكينة والوقار ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان) ، قال : حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم مما تسمعون .

ثم ذكر ليلهم خير ليل قال : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ (الفرقان) ، ينتصبون لله على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجداً لربهم ، تجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم» .

قال ابن القيم في قوله عز وجل : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ (فسلاماً هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه : أي قالوا قولاً سلاماً ، أي سداداً وصواباً وسليماً من الفحش والخنا ، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل) انتهى .

وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «**إن في الجنة غُرفاً تُرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها . فقام أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله؟ فقال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام**» .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة : ٨٣) ، قال : (يعني الناس كلهم) .

وأخرج الطبراني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله التودّد إلى الناس**» .

وروى الطبراني عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «**من لم تكن فيه واحدة من ثلاث فلا يحتسب بشيء من عمله ، من لم تكن فيه تقوى تحجزه عن المحارم ، أو حلم يكفُّه عن غيِّه ، أو خلق يعيش به في الناس**» .

وروى ابن أبي الدنيا والطبراني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**لن ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل من قطعه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويغفر لمن شتمه ، ويحسن إلى من أساء إليه**» .

وروى الطبراني عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال : يا عقبة «**ألا أخبرك**

بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟»قلت : نعم ، قال : «**تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمَّن ظلمك**» .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (فصلت : ٣٤) ، قال : (أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم : ﴿**كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)**﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ، ألا ليقم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا ، وذلك قوله** : ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ (الشورى : ٤٠)» .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**قال موسى بن عمران عليه السلام : يا رب ، من أعز عبادك عندك؟ قال : من إذا قدر عفا**» .

وأخرج محمد بن جعفر الخرائطي في مكارم الأخلاق عن عكرمة . قال : «قال الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام : يا يوسف بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الذاكرين» .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة ، طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب ، فقال : «ماذا تقولون ، وماذا تظنون؟ قالوا : نقول ابن أخ وابن عم حليم رحيم ، فقال : أقول كما قال يوسف : ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)**﴾ (يوسف : ٩٢) ، فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «بعث النبيُّ ﷺ خيلاً قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثُمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : ما عندك يا ثمامة؟ فقال : عندي

خير يا محمد ، إن تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فتُرك حتى كان الغد ثم قال له : ما عندك يا ثمامة؟ فقال : ما قلتُ لك : إن تُنعم تنعم على شاكر ، فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ما عندك يا ثمامة؟ فقال : عندي ما قلت لك . فقال : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك ، فأصبح دينك أحبّ الدين إليَّ . والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليَّ ، وإن خيلك أخذتني ، وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت؟ قال : لا والله ، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ، لا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ» .

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن عائشة رضي الله عنها قالت : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**وجبت محبة الله على من أغضب فحلم**» .

وروى أحمد في المسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «**ما من جرعة أحب إليَّ من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً**» .

وروى أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما تجرَّع عبد جُرعة أفضل عند الله عز وجل من جُرعة غيظ ، يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى**» .

وروى الطبراني عن أنس أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يصطرعون فقال ما هذا؟ فقالوا : يا رسول الله فلان الصريع لا ينتدب له أحد إلا صرعه . فقال ﷺ : «**أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل ظَلَمه رجل فكظم غيظه فغلبه ، وغلب شيطانه ، وغلب شيطان صاحبه**» .

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «**من كفَّ لسانه ستر**

الله عز وجل عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عز وجل عذابه ، ومن اعتذر إلى الله عز وجل قبل عذره» .

وروى الطبراني عن وهب بن منبه قال : «مكتوب في التوراة : اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت ، وإذا ظُلِمْتَ فاصبر فإن نصرتي لك خير من نصرتك لك ، وحرك يدك افتح لك باب الرزق» .

وروى أيضاً عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن ابن عمرو أن رجلاً قال : «يا رسول الله ما ينجيني من غضب الله ، قال ﷺ : «**لا تغضب**» .

وروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : إن «**أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال ، ولكن يدخلوها برحمة الله ، وسخاوة النفس ، وسلامة الصدر ، والرحمة لجميع المسلمين**» .

وروى مسلم عن جرير بن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجلّ**» .

وروى الترمذي وأحمد عن أنس قال : جاء شيخ يريد النبي ﷺ ، فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له ، فقال النبي ﷺ : «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا**» .

وروى مسلم عن أبي هريرة ، أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم . فقال رسول الله ﷺ : «**إنه مَنْ لا يرحم لا يُرحم**» .

وروى البخاري من أسامة بن زيد عن النبي ﷺ ، قال : «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» .

يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة : (ومنها أن يعامل العبد بني جنسه في إساءتهم إليه وزلاّتهم معه بما يحب أن يعامله الله به في إساءته وزلاّته وذنوبه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فمن عفا عفى الله عنه ، ومن سامح أخاه في إساءته إليه

سامحه الله في سيئاته ، ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه . ولا تنس حال الذي قبضت الملائكة روحه فقيل له : «هل عملت خيراً ، هل عملت حسنة؟ قال : ما أعلمه؟ قيل : تذكّر . قال : كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر ، أو قال كنت آمر فتياني أن يتجاوزوا في السكة ، فقال الله : نحن أحق بذلك منك تجاوزوا عنه» فالله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم) انتهى .

وأخرج مسلم في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال : «**اللهم من وليَ من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم ، فاشقق عليه . ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم ، فارفق به**» .

وأخرج أيضاً عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق . ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**» .

وروى أحمد ومسلم عن أنس أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا : السام عليك فقال النبي ﷺ : «السام عليكم» فقالت عائشة : السام عليكم يا إخوان القردة والخنازير ، ولعنة الله وغضبه ، فقال ﷺ : «**يا عائشة مه**» فقالت : يا رسول الله أما سمعت ما قالوا؟ قال : «**أو ما سمعت ما رددت عليهم يا عائشة؟ لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه ، ولم ينزع من شيء إلا شانه**» .

وفي رواية قال : «**يا عائشة إن الله عز وجل يحب الرفق في الأمر كله**» .

ويروى أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق**» .

وروى الطبراني عن جابر : أن النبي ﷺ قال : «**ألا أخبركم على من تحرم النار؟ على كل هيِّن ، ليِّن ، سهل ، قريب**» .

وروى ابن أبي الدنيا عن كعب قال : «لم يكن الحياء في رجل قط فتطعمه النار أبداً» .

وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**والله ما حَسَّنَ الله خلق رجل ولا خلقه فتطعمه النار**» .

وأخرج ابن عدي والطبراني والبيهقي وضعفه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «**حسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل**» .

وأخرج الترمذي وأحمد عن أبي هريرة قال : «**سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة ، قال : تقوى الله وحُسن الخُلق ، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار ، قال : الفمُ والفرج**» .

وأخرج البيهقي عن كعب بن مالك : «أن رجلاً من بني سلمة سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال : «**حسن الخلق**» ، ثم راجعه الرجل فلم يزل رسول الله ﷺ يقول : «**حسن الخلق**» حتى بلغ خمس مرات» .

وروى أحمد عن أبي هريرة قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : «**خيركم إسلاماً أحاسنكم أخلاقاً إذا فقهوا**» .

وروى أحمد والترمذي عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال : «**إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله**» .

وروى أحمد عن عائشة أن النبي ﷺ قال : «**إن الرجل ليدرك بحسن الخُلق درجة الصائم القائم**» .

وروى أحمد والترمذي عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له : «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن**» .

وروى أبو يعلى والطبراني عن أنس قال : «لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل في الميزان من غيرها قال بلى يا رسول الله قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت فوالذي نفسي بيده ما تجمّل الخلائق بمثلهما» .

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» .

وروى أحمد والترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال : «**من صمت نجا**» .

وأخرج محمد بن جعفر الخرائطي عن أبي الدرداء . قال : «**تعلموا الصمت كما تتعلمون الكلام ، فإن الصمت حكم عظيم ، وكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تتكلم ، ولا تتكلم في شيء لا يعنيك ، ولا تكن مضحكاً من غير عجب ، ولا مَشَّاء إلى غير أرب يعني إلى غير حاجة**» .

وروى أيضاً عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : «**من لا يملك لسانه يندم ، ومن يكثر المراء يشتم**» .

وروى ابن أبي الدنيا عن محمد بن سيرين قال : «**كنا نحدث أن أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس**» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى قال ، قلت : يا رسول الله أي المسلمين أفضل قال ﷺ : «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» .

وروى أيضاً عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول : «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» .

وروى أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وأن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**» .

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها أهل المجلس يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض وإن الرجل ليزل على لسانه أشد ما يزل على قدميه**» .

وروى الترمذي عن معاذ في قول النبي ﷺ : «**رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد**» ثم قال : «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله**» قلت : بلى يا رسول

الله ، فأخذ بلسانه قال : «**كف عليك هذا**» قلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال : «**ثكلتك أمك! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**» .

وروى ابن أبي الدنيا عن صدقة بن عبد ربه قال : «لما كبر آدم جعل بنو بنيه يعبثون به ، فيقول : يا بني ، إني رأيت ما لم تروا ، وسمعت ما لم تسمعوا ، رأيت الجنة ، وسمعت كلام ربي ، وقيل لي حين أخرجني منها : إن أنت حفظت لسانك أعدتك إليها» .

وروى أحمد عن ثابت البناني قال : قال شداد بن أوس لغلامه : ائتنا بالسفرة نعبث ببعض ما فيها فقال له رجل من أصحابه : ما سمعت منك كلمة منذ صاحبتك ، أرى أن يكون فيها شيء من هذه . قال : صدقت ، «ما تكلمت بكلمة مذ بايعت رسول الله ﷺ ، إلا أزمها وأخطمها إلا هذه ، وأيم الله لا تذهب مني هكذا ، فجعل يسبح ويكبر ، ويحمد الله عز وجل» .

وروى أيضاً عن عبدالله بن المبارك ، قال : قال بعضهم في تفسير العزلة : «هو أن يكون من القوم ، فإن خاضوا في ذكر الله ، فخض معهم ، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت» .

وأخرج محمد بن جعفر الخرائطي عن أبي ذر عن النبي ﷺ : «**الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة ، والسكوت خير من إملاء الشر ، وإملاء الخير خير من السكوت**» .

وأخرج أيضاً عن حذيفة قال : «**سيأتي على الناس زمان لا يكون فيه شيء أعز من ثلاث : أخ تستأنس به ، أو درهم حلال ، أو سنة يعمل بها**» .

باب ما جاء في الفتن وعرضها على القلوب

يقول الله تعالى : ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③﴾ (العنكبوت) . ويقول الله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ㉟﴾ (الأنبياء) . ويقول الله تعالى : ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ (التوبة) . وقال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ⑳﴾ (الفرقان) . وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑪﴾ (الحج) .

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها نُكت فيه نكتة سوداء . وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبينَ ، على أبيض مثل الصفا فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض . والآخر أسود مُرباداً كالكوز مجخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً . إلا ما أشرب من هواه**» .

قال أبو خالد : فقلت لسعد : يا أبا مالك ما أسود مرباداً؟ قال : شدة البياض في سواد .

قال ، قلت : فما الكوزُ مجخِّيا؟ قال : منكوساً .

وروى مسلم والبخاري عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال : «**ألا وإن في الجسد مُضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت ، فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب**» .

وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً . أو يُمسي مؤمناً ويصبح كافراً . يبيع دينه بعرض من الدنيا**» .

وروى أحمد في مسنده ، عن النعمان بن بشير قال : صحبنا النبي ﷺ وسمعناه يقول : «**إن بين يدي الساعة فتناً كأنها كقطع الليل المظلم ، حتى يصبح الرجل فيها مؤمناً ثم يمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً . يبيع أقوام خلاقهم بعرض من الدنيا يسير أو بعرض الدنيا**» .

قال الحسن : «والله لقد رأيناهم صوراً ولا عقول أجساماً ولا أحلام فراش نار وذبان طمع يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين يبيع أحدهم دينه بثمن العنز» .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه ، عن أبي هريرة قال : (أظلتكم الفتن كقطع الليل المظلم ، أنجى الناس فيها صاحب شاهقة ، يأكل من رسل غنمه ، أو رجل من وراء الدرب آخذ بعنان فرسه ، يأكل من سيفه» .

وروى ابن ماجة والدارمي عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «ستكون فتن يُصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويُمسي كافراً . إلا من أحياه الله بالعلم» .

وروى أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، يقول : كنا عند رسول الله ﷺ قعوداً ، فذكر الفتن ، فأكثر ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل : يا رسول الله ، وما فتنة الأحلاس؟ قال : «**فتنة هَرَب وحرب**» إلى قوله : «**ثم فتنة الدهيماء ، لا تدعُ أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمة ، فإذا قيل انقطعت تمادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويُمسي كافراً ، حتى يصير الناس إلى فسطاطين ، فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، إذا كان ذلكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد**» .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : «**لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ـ وهو القتل ـ حتى يكثر فيكم المال فيفيض**» .

وروى أحمد في مسنده والبخاري ، عن عوف بن مالك ، قال : استأذنت على النبي ﷺ فقلت : أدخل كلي أو بعضي؟ قال : «**ادخل كلك**» فدخلت عليه ، وهو يتوضأ وضوءاً مكيثاً ، فقال لي : «**يا عوف بن مالك ستاً قبل الساعة : موت نبيكم خذا**

حدي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موت يأخذكم تقعصون فيه كما تقعص الغنم ثم تظهر الفتن ويكثر المال حتى يُعطى الرجل الواحد مائة دينار فيسخطها ، ثم يأتيكم بنو الأصفر تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً» .

وروى البخاري في صحيحه عن أسامة رضي الله عنه قال : أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال : «**هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**» .

وروى الطبراني في الكبير وابن أبي شيبه في مصنفه ، وقال حدثنا أبو أسامة عن إسماعيل عن بيان عن قيس أن رسول الله ﷺ رفع رأسه إلى السماء ثم قال : «سبحان الله تُرسل عليهم الفتن إرسال القطر» .(١)

(١) وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه ، وهو من دلائل نبوته ـ من وجود ذلك البث المباشر والأقمار الصناعية في كبد السماء وما تبثه من الشر والفتن على رؤوس الناس ومساكنهم عبر شاشات التلفاز وغيرها . فينزل من السماء كنزول القطر والمطر . وهي فتنة كما أخبر ﷺ لا تجعل بيتاً إلا دخلته . ففي صحيح البخاري عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ قال : «ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته» .

باب ما جاء في الفرار من الفتن واعتزال أهل الشرك وقوله ﷺ «الهجرة هجرتان»

يقول الله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)﴾ (النحل) . ويقول الله تعالى عند نبيه إبراهيم عليه السلام في قوله لقومه : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ (مريم) . وقال الله تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾ .

روى أحمد في مسنده والنسائي عن جرير بن عبدالله أنه قال : «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح للمسلم وعلى فراق المشرك» .

وروى أحمد في المسند والنسائي عن عبدالله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ، أي الهجرة أفضل؟ قال : «أن تهجر ما كره ربك ، وهما هجرتان : هجرة الحاضر ، وهجرة البادي ، فأما هجرة البادي : فيطيع إذا أمر ويجيب إذا دُعي ، وأما هجرة الحاضر فهي أشدهما بلية وأعظمهما أجراً» .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله تعالى : ﴿السائحون﴾ قال : (هم المهاجرون ، ليس في أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة ، وكانت سياحتهم الهجرة حين هاجروا إلى المدينة ، ليس في أمة محمد ﷺ ترهب» .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر ، يفرُّ بدينه من الفتن**» .

وروى البخاري عن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال لي : إني أراك تحبُّ الغَنَم وتتخذها ، فأصلحها وأصلح رعاتها ، فإني سمعت النبي ﷺ يقول : «**يأتي على الناس زمان تكون الغنم فيه خير مال المسلم يتبع بها شَعَفَ الجبال ـ أو سعف الجبال ـ في مواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن**» .

وروى مسلم والبخاري عن حذيفة بن اليمان يقول : كان الناس يسألون رسول الله عن الخير . وكنت أسأله عن الشر . مخافة أن يدركني . فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر . فجاءنا الله بهذا الخير . فهل بعد هذا الخير شر؟ قال : «**نعم**» فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : «**نعم . وفيه دخن**» قلت : وما دخنه؟ قال : «**قوم يستنون بغير سنتي ، ويهدون بغير هديي . تعرف منهم وتنكر**» . فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال : «**نعم . دعاة على أبواب جهنم . من أجابهم إليها قذفوه فيها**» . فقلت : يا رسول الله صفهم لنا . قال : «**نعم قوم من جلدتنا . ويتكلمون بألسنتنا**» قلت : يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال : «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**» فقلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال : «**فاعتزل تلك الفرق كلها . ولو أن تعضّ على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت ، وأنت على ذلك**» .

وفي رواية لأحمد في مسنده عن حذيفة قال : «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وأسأله عن الشر ، فقلت : يا رسول الله ، هل بعد هذا الخير شر كما كان قبله شر؟ قال : **نعم** ، قلت : فما العصمة منه؟ قال : **السيف أحسب** ـ أبو التياح يقول : **السيف أحسب** ـ قال : قلت : ثم ماذا؟ قال : ثم تكون هدنة على دخن ، قال : قلت : ثم ماذا؟ قال : **ثم تكون دعاة الضلالة** ، قال : **فإن رأيت يومئذ خليفة الله في الأرض فالزمه وإن نهكَ جسمك وأخذ مالك ، فإن لم تره فاهرب في الأرض ، ولو أن تموت وأنت عاض بجذل شجرة** ، قال : قلت : ثم ماذا؟ قال : **ثم يخرج الدجال**» .

وفي رواية : «ثم ماذا؟ قال : **يخرج الدجال بعد ذلك**» .

وروى أحمد في مسنده والبيهقي عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «**تكون**

النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» .

وروى البيهقي والطبراني وأبو يعلى عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائناً خلافة ورحمة ، وكائناً ملكاً عضوضاً ، وكائناً عُتُوَّةً وجبرية وفساداً في الأمة ، يستحلون الفروج والخمور والحرير ، وينصرون على ذلك ، ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل» .

باب ما جاء في نصرة الدين والتضحية في سبيل الله عز وجل

يقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ (محمد) . ويقول الله تعالى : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج) . ويقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ (الحديد) . ويقول الله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ (آل عمران) .

جاء في تفسير ابن مقاتل قوله : (﴿**إن تنصروا الله**﴾ حتى يُوَحَّد . ﴿**ينصركم**﴾ على عدوكم فلا نزول عند اللقاء عن التوحيد . وقال النبي ﷺ : «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» فما ترك التوحيد قوم إلا سقطوا من عين الله وسلّط عليهم السبي .أهـ .

وروى أحمد في المسند عن الحارث الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «**وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**» .

وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت «أن أسعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال : يا أيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمداً؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة . فقالوا : نحن حرب لمن حارب وسلم لمن سالم . فقال أسعد بن زرارة : يا رسول الله اشترط علي ، فقال : **تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وإني رسول الله ﷺ ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعوني مما تمنعون**

منه **أنفسكم وأهليكم** ، قالوا : نعم . قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ قال : **الجنة والنصر**» .

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، قال : «بايعت النبيَّ ﷺ ثم عدلت إلى ظل شجرة ، فلما خَفَّ الناس قال : يا ابن الأكوع ألا تُبايع؟ قال : قلت : قد بايعت يا رسول الله ، قال : وأيضاً ، فبايعته الثانية . فقلت له : يا أبا مسلم ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال : على الموت» .

قال أبو عيسى الترمذي : (قد بايعه قوم من أصحابه على الموت وإنما قالوا لا نزال بين يديك حتى نقتل وبايعه آخرون فقالوا لا نفر) .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «سمعت النبي ﷺ يقول : **والذي نفسي بيده ، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ، ولا أجدُ ما أحملهم عليه ، ما تخلفتُ عن سرية تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل**» . متفق عليه

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُدل به : أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : «لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا**﴾ (المائدة : ٢٤) ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره ، يعني قوله» .

ولا أعجب من شيء كعجبي من ذلك الصحابي الضرير الأعمى عمرو بن أم مكتوم الذي جعل أمر إقامة الدين نصب عينيه : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢١٨)﴾ (البقرة) .

فلم يبخل على نفسه في أن يكون لبنة في نصرة هذا الدين العظيم ، فسعى لإقامته في الأرض . فهاجر مع أوائل المهاجرين ، وقد عذره الله تعالى في كونه أعمى في ترك

الهجرة، بقوله: ﴿**إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** (٩٨)﴾ (النساء).

وقصد الجهاد، وقد عذره الله تعالى بقوله: ﴿**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ (الفتح: ١٧).

فأبت تلك النفس الطيبة إلا أن تكون في مواطن الجهاد والمجاهدين في تلك الملاحم العظيمة الكبرى التي فتح الله بها على أهل الإسلام في معركة القادسية، فكان معه اللواء حينئذ وهو صاحبه في تلك المعركة، فجال فيها، وقيل استشهد في هذه المعركة. طيَّب الله روحه ورفعها في أعلى عليين.

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أنس بن مالك قال: (نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ**﴾ (النساء: ٩٥) لقد رأيته في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء).

وأخرج ابن سعد وابن المنذر من طريق ثابت عن عبدالرحمن ابن أبي ليلى قال: (لما نزلت: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (النساء: ٩٥). قال ابن أم مكتوم: أي رب أين عذري، أي رب أين عذري؟ فنزلت: ﴿**غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ**﴾ (النساء: ٩٥)، فوضعت بينها وبين الأخرى، فكان بعد ذلك يغزو ويقول: ادفعوا إلي اللواء، وأقيموني بين الصفين فإني لن أفر).

وروى ابن المبارك في الجهاد والبيهقي في الدلائل والحاكم عن سعيد بن المسيب قال: قال عبدالله بن جحش يوم أحد: «اللهم إني أقسم عليك أن نلقى العدو، فإذا لقينا العدو أن يقتلوني، ثم يبقروا بطني، ثم يمثلوا بي، فإذا لقيتك سألتني فيم هذا، فأقول: فيك، فلقي العدو فقتل، وفعل ذلك به قال ابن المسيب، فإني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله».

وروى ابن عساكر في تاريخه والبيهقي عن أبي رافع، قال: «وجّه عمر بن الخطاب جيشاً إلى الروم، وفيهم عبدالله بن حذافة من أصحاب النبي ﷺ فأسره الروم، فذهبوا

به إلى ملكهم (طاغيتهم بالقسطنطينية) فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال له الطاغية : هل لك أن تتنصَّر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ قال له عبدالله : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلتُ ، قال - إذاً - أقتلك ، قال : أنت وذاك ، قال : فأمر به فصُلب ، وقال للرماة ارموه قريباً من يديه ، قريباً من رجليه ، وهو يعرض عليه ، وهو يأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصبَّ فيه الماء حتى احترقت (وفي رواية ابن عباس) فقال له الطاغية : تَنَصَّر ، وإلا ألقيتك في النُّقْرة من نحاس ، قال : ما أفعل ، فدعا بالنقرة النحاس ، فملئت زيتاً وغُليت ، ودعا برجل من أسارى المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى ، فألقاه في النّقرة فإذا عظامه تلوح ، وقال لعبدالله : تنصَّر وإلا ألقيتك ، قال : ما أفعل ، فأمر به أن يُلقى في النُّقْرة فكتَّفوه ، فبكى ، فقالوا : قد جزع ، قد بكى ، قال ردوهُ ، قال له : لا ترى إني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي ، ولكني بكيت حين لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله ، كنتُ أحبّ أن تكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيّ ، ثم تُسلّط عليَّ فتفعل بي هذا ، قال : فأعجب منه ، وأحب أن يطلقه ، فقال : قبِّل رأسي وأطلقك ، قال : ما أفعل ، قال : تنصّر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي ، قال : ما أفعلُ ، قال : قبِّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين ، قال : أما هذه فنعم ، قال : فقبَّل رأسه ، وأطلق معه ثمانين من المسلمين ، فلما قدموا على عمر بن الخطاب قام إليه عمر فقبّل رأسه ، قال : فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبدالله فيقولون : قبّلت رأس عِلْج ، فيقول لهم : أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين» .

وليس هذا بعجيب على من تشربت قلبه محبة فاطره وموجده . فقد وصفهم الله عز وجل بأشد مراتب المحبة بقوله : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ (البقرة : ١٦٥) .

قال بعض العارفين عن سحرة فرعون لما آمنوا بموسى : هذه حال السحرة لما سكنت المحبة قلوبهم ، سمحوا ببذل نفوسهم ، وقالوا لفرعون : ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ**﴾ (طه : ٧٢) .

ومتى تمكّنت المحبة في القلب ، لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب .أهـ .

يقول ابن القيم في شفاء العليل : (وأحب شيء للحبيب أن يرى مُحِبه يتحمل لأجله من الأذى والوَصَب ما يُصدق محبته .

من أجلك قد جعلتُ خدي أرضاً

للشامت والحسود حتى ترضا

وفي أثر إلهي : «بغيتي ما يتحمل المتحملون من أجلي» .

فلله ما أحب إليه احتمال محبيه إذا أعدائه لهم فيه وفي مرضاته . وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحمدهم لعاقبته . وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرّة عيونهم به) .أهـ .

باب ما جاء في فضل الجهاد في سبيل الله وما أعده الله تعالى لأهله من الدرجات والمقامات العالية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ (الصف). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ (التوبة). وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾ (النساء). وقال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾ (النساء). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ (الحجرات).

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تضمن الله** لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي. فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة. أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه. نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق

على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم . ولا يجدون سعة . ويشق عليهم أن يتخلفوا عني . والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل» .

وروى أحمد والنسائي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك؟ فيقول : أي رب خير منزل ، فيقول : سل وتمنَّ فيقول : ما أسأل وأتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة**» .

وروى مسلم عن أبي هريرة ، قال : قيل للنبي ﷺ : ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال : «**لا تستطيعوه**» قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً . كل ذلك يقول : «**لا تستطيعونه**» . وقال في الثالثة : «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله . لا يفتر من صيام ولا صلاة . حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى**» . متفق عليه

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغي القتل والموت مظانّه ، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين . ليس من الناس إلا في خير**» .

وروى الطبراني وأبويعلى وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أوصني ، قال : «**عليك بتقوى الله عز وجل فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله عز وجل وتلاوة كتابه فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء ، واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان**» .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة .

أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ في السياحة . فقال ﷺ : «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**» .

وروى ابن عساكر وابن أبي الدنيا عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : (ما من ليلة إلا ليلة تهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب ، وأبشر منها بغلام أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبح فيها العدو) .

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» قال : عُمير بن الحُمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال : «نعم» قال : بخ بخ . فقال رسول الله ﷺ : «ما يحملك على قولك بخ بخ» قال : لا . والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها . قال : «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قَرَنِه . فجعل يأكل منهن . ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة . قال فرمى بما كان معه من التمر . ثم قاتلهم حتى قُتل» .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «**والذي نفسي بيده ، لا يُكلم أحدٌ في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم ، والريح ريح المسك**» . متفق عليه

يقول ابن القيم في طريق الهجرتين : (الطبقة السادسة : المجاهدون في سبيل الله ، وهم جند الله ، الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم بيضة الإسلام ويحمى لهم حوزة الدين ، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا ، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه ، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم ، ولهم مثل أجور من عبدالله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه .

وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد

والحض عليه ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ، ويكفي في تلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ (الصف) ، فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ (الصف) ، فكأن النفوس ضنت بحيالها وبقائها فقال : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ ، يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة ، فكأنها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ مع المغفرة : ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ (الصف) ، فكأنها قالت : هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الصف) . انتهى

وقال في زاد المعاد : (إذا عرف هذا ، فالجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ، فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً :

إحداهما : أن يجاهدها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذي لا فلاح لها ، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه ، شقيت في الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه من لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ، ولا ينفعه علمه ، ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع ، صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ، ويعمل به ، ويعلمه ، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات .

وأما جهاد الشيطان ، فمرتبتان ، **إحداهما** : جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان .

الثانية : جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات .

فالجهاد الأول يكون بعده اليقين ، والثاني يكون بعده الصبر . قال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤)﴾ (السجدة) . فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات) . انتهى

باب ما جاء في تثبيت الملائكة لأهل الإيمان في مواطن الجهاد وقوله سبحانه: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾

قال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾ (الأنفال) . وقال تعالى : ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ (آل عمران) .

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ، قال : (لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فمازال يهتف بربه ، مادًّا يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه . ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)﴾ (الأنفال) ، فأمده الله بالملائكة) .

قال أبو زميل : فحدثني ابن عباس قال : (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم . فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً . فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه ،

وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضر ذلك أجمع . فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ . فقال : «**صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة**» فقتلوا يومئذ سبعين ، وأسروا سبعين) . رواه مسلم

وروى سعيد بن منصور في سننه ، عن عبيدالله بن عبدالله ، قال : (لما كان يوم بدر جلس ناس من العرب في جبل بدر يقولون حيثما كانت الدبرة كنا مع أهلها ، فلما أعز الله نصر رسوله جاؤوه فأخبروه أمرهم ، فقالوا : أي رسول الله سمعنا شيئاً يهبط من السماء ، وسمعنا حمحمة الخيل ، وقرع الأداة ، وسمعنا شيئاً يقال له : أقدم حيزوم قال : «ذاك جبريل عليه السلام») .

وروى ابن جرير في تاريخه عن ابن عباس قال : حدثني رجل من بني غفار قال : (أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب . قال : فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيال فسمعت قائلاً : يقول : أقدم حيزوم . قال : فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت» .

وروى أيضاً في تاريخه وكذا ابن مردويه وعبد بن حميد عن أبي داود المازني ـ وكان شهد بدراً ـ قال : (إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري) .

وروى أيضاً في تاريخه وكذا الحاكم في المستدرك وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، قال : قال لي أبي : (يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف) .

وروى البيهقي في الدلائل وأبو نعيم عن مالك بن ربيعة وكان شهد يوم بدر قال : بعد أن ذهب بصره (لو كنت معكم ببدر الآن ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة) .

وروى الطبراني وأبو نعيم في الدلائل والبيهقي عن ابن عباس عن أبي رافع مولى

رسـول الله ﷺ قـال : (كنت غـلامـاً لـلعبـاس بن عـبـدالمطلب ، وكنت قـد أسـلمت وأسلمت أم الفضل وأسلم العباس ، وكان يكتم إسلامه مخافة قومه ، وكان أبولهب قد تخلّف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام ، وكان له عليه دين . فقال له : اكفني هذا الغزو وأترك لك ما عليك فَفَعَلْ ، فلما جاء الخبر وكبت الله أبا لهب وكنت رجلاً ضعيفاً أنحت هذه الأقداح في حجرة ومر بي فوالله إني لجالس في الحجرة أنحت أقداحي وعندي أم الفضل إذ الفاسق أبو لهب يجر رجليه أراه قال : حتى جلس عند طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري . فقال الناس : هذا أبو سفيان ـ وفي رواية أبي نعيم ـ لما جاء الخبر عن مصاب أهل بدر قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قد قدم فقال له أبو لهب : هلم إلي يا ابن أخي ، أخبرني فعندك لعمري الخبر . قال : فجلس إليه والناس قيام فقال : يا ابني أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال : لا شيء والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا فقتلونا كيف شاؤوا وأسرونا كيف شاؤوا ، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض والله ما تبقي شيئاً وما يقوم لها شيء . قال أبورافع : فرفعت طنب الحجرة ثم قلت : «تلك والله الملائكة» .

فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك علي يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً .

وعند الطبراني ـ فقامت أم الفضل فاحتجزت فأخذت عموداً من عمد الحجرة فضربته به ففلقت في رأسه شجة منكرة وقالت : أي عدو الله استضعفته أن رأيت سيده غائباً عنه ، فقام ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى ضربه الله بالعدسة فقتلته ، فلقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثة ما يدفناه حتى أنتن . فقال رجل من قريش لابنيه : ألا تستحيان إن أباكما قد أنتن في بيته . فقالا : إنا نخشى هذه القرحة ، وكانت قريش يتقون العدسة كما يتقى الطاعون . فقال رجل : انطلقا فأنا معكما . قال : فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ، ثم احتملوه فقذفوه في أعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه بالحجارة) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : ﴿**لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ**﴾ (الأنفال : ٤٨) . وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين فلما رأى جبريل انتزع يده وولّى مدبراً هو وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة إنك جار لنا؟ فقال : ﴿**إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ**﴾ (الأنفال : ٤٨) وذلك حين رأى الملائكة) .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿**إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ**﴾ (الأنفال : ٤٨) ، قال : (ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة ، وقال : ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ**﴾ ، وكذب عدو الله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له) .

وفي رواية الواقدي وابن مردويه . قال ابن عباس : (وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يجبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، فلما أبصر عدو الله الملائكة ﴿**نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ**﴾ (الأنفال : ٤٨) . فتشبث به الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال : يا رب موعدك الذي وعدتني) .

وأخرج الطبراني وأبونعيم في الدلائل عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال : (لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه ، فتشبث به الحارث بن هاشم وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر ، فرفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي) .

وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عن معمر قال : (ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك ، فأنكر أن يكون شيء من ذلك) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة عليهم السلام ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به) .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه : ﴿**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ⑫﴾ (الأنفال) قال : (ما وقعت يومئذ ضربة إلا برأس أو وجه أو مفصل) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ⑨﴾ (الأحزاب) . قال : (أرسل الله عليهم الصبا ، فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم فقال رسول الله ﷺ : «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور ، فذلك قوله : ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ (الأحزاب : ٩) .

وأخرج أحمد وابن جرير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (قلنا يوم الخندق : يا رسول الله هل من شيء نقول : فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال : نعم . قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله بالريح) .

باب ما جاء في ما يناله الشهيد في سبيل الله من عظيم الجزاء والكرامة وقوله سبحانه: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾

يقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (آل عمران) . ويقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة) .

أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن ابن عباس قال : «قال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقبلهم . قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ـ وفي لفظ ـ قالوا : إنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله هؤلاء الآيات : ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله**﴾ الآية . وما بعدها» .

وروى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب ـ فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، قال : «يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» .

وروى الترمذي وأحمد وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب ، قال : قال رسول

الله ﷺ : «للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة . يرى مقعده من الجنة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفّع في سبعين من أقاربه» .

وروى الترمذي وأحمد عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة» .

وروى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن : رجلاً قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال : «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة» .

وروى البيهقي في الدلائل والحاكم ، عن أنس ، أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل أسود اللون ، قبيح الوجه ، منتن الريح ، لا مال لي ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟ قال : نعم . فتقدم فقاتل حتى قتل ، فأتى عليه النبي ﷺ وهو مقتول ، فقال : «لقد أحسن الله وجهك ، وطيب روحك ، وكثر مالك» . قال : وقال لهذا أولغيره : «لقد رأيت زوجتيه من الحور العين تنازعانه جبته عنه يدخلان فيما بين جلده وجبته» .

وروى الحاكم والبيهقي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله في غزوة خيبر فخرجت سرية فأخذوا إنساناً معه غنم يرعاها فجاؤوا به إلى رسول الله فكلمه النبي ﷺ ما شاء الله أن يكلم ، فقال له الرجل : إني قد آمنت بك وبما جئت به فكيف بالغنم يا رسول الله؟ فإنها أمانة وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك ، قال : «احصب وجوهها ترجع إلى أهلها» ، فأخذ قبضة من حصباء أو تراب فرمى بها وجوهها فخرجت تشتد حتى دخلت كل شاة إلى أهلها ، ثم تقدم إلى الصف فأصابه سهم فقتله ولم يصلِّ لله سجدة قط ، فقال رسول الله ﷺ : «ادخلوه الخباء» ، فأدخل خباء رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ دخل عليه ثم خرج فقال : «لقد حسن إسلام صاحبكم لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين له من الحور العين» .

وروى البيهقي في الشعب عن ابن عمر أن النبي ﷺ مر بخباء أعرابي وهو في أصحابه يريدون الغزو فرفع الأعرابي ناحية من الخباء فقال من القوم فقيل له رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون الغزو فقال : هل من عرض الدنيا يصيبون قيل له نعم يصيبون الغنائم ثم تقسم بين المسلمين فعمد إلى بكر له فاعتقله وسار معهم فجعل يدنو بكره إلى رسول الله ﷺ وجعل أصحابه يذودون بكره عنه . (فقال رسول الله ﷺ دعوا لي النجدي فوالذي نفسي بيده إنه لمن ملوك الجنة قال فلقوا العدو فاستشهد فأخبر بذلك النبي ﷺ فأتاه فقعد عند رأسه مستبشراً أو قال مسروراً يضحك ثم أعرض عنه فقلنا : يا رسول الله رأيناك مستبشراً تضحك ثم أعرضت عنه فقال : أما ما رأيتم من استبشاري أو قال سروري فلما رأيت من كرامة روحه على الله تعالى ، وأما اعراضي عنه فإن زوجته من الحور العين الآن عند رأسه» .

وروى ابن أبي شيبة وأبونعيم وغيرهم عن مجاهد قال : قام يزيد بن شجرة في أصحابه فقال : إنها قد أصبحت عليكم من بين أخضر وأحمر وأصفر وفي البيوت ما فيها فإذا لقيتم العدو غداً فَقُدُماً قُدُماً فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما تقدم رجل من خطوة إلا تقدم إليه الحور العين فإن تأخر استترت منه وإن استشهد كانت أول نضحة كفارة خطاياه ، وتنزل إليه ثنتان من الحور العين تنفضان عنه التراب وتقولان له : مرحباً قد آن لك ، ويقول مرحباً قد آن لكما» .

وروى أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال : ذكر الشهيد عند النبي ﷺ فقال : **«لا تجف الأرض من دم الشهيد حتى يبتدره زوجتاه كأنهما ظئران أظَلَّتَا أو أضلتا فصيليهما ببراح من الأرض ، بيد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها»** .

قال المنذري في الترغيب : («الظئر» : هي المرضع ، ومعناه : أن زوجتيه من الحور العين تبتدرانه ، وتحنوان عليه وتظلاَّنه كما تحنو الناقة المرضع على فصيلها ، ويحتمل أن يكون أضلتا بالضاد ، فيكون النبي ﷺ شبَّه بَدارهما إليه باللهفة والحنو والشوق كبدار الناقة المرضع إلى فصيلها الذي أضلته) .أهـ .

وروى هناد في الزهد والحاكم في المستدرك ، عن مجاهد ، عن يزيد بن شجرة قال : وكان يصدق فعله قوله ، وكان يقول : «إن السيوف مفاتيح الجنة ، وكان يقول : إذا التقى الصفَّان في سبيل الله وأقيمت الصلاة يزين الحور العين فاطلعن فإذا أقبل قلن : اللهم ثبته ، اللهم انصره ، اللهم أعنه ، وإذا أدبر احتجبن عنه ، وقلن : اللهم اغفر له ، فإذا قتل غفر له بأول قطرة تخرج من دمه كل ذنب حوله ، وينزل عليه اثنتان من الحور العين فتمسحان الغبار عن وجهه ، وتقولان : قد آن لك ، ويقول : قد آن لكما» .

وروى ابن المبارك في الجهاد وعبدالرزاق في مصنفه ، عن عبدالله بن عبيد بن عمير الليثي ، قال : «إذا التقى الصفَّان أهبط الله الحور العين إلى السماء الدنيا ، فإذا رأين الرجل يرضين مقدمه قلن : اللهم ثبته ، فإن نكص احتجبن منه ، وإن هو قتل نزلتا إليه ، فمسحتا عن وجهه التراب ، وقالتا : اللهم عفِّر من عفَّره ، وترِّب من ترَّبه» .

وروى ابن المبارك والبيهقي عن نعيم بن أبي هند قال : قال رجل يوم القادسية : «اللهم إن حدبة سوداء بذيئة - يعني امرأته - فزوجني اليوم مكانها من الحور العين . فمروا عليه وهو معانق فارساً يذكر من عظمه ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ حتى ختم الآية ، فماتا جميعاً» .

وروى أحمد في الزهد عن سعيد بن عبدالعزيز قال : لا نعلم أحداً رأى حور العين عياناً إلا في المنام ، إلا ما كان من أبي مخرمة ، فإنه دخل يوماً لحاجته ، فرأى حوراء في قبتها وعلى سريرها ، فلما رآها صرف وجهه عنها ، قالت : إلي يا أبا مخرمة ، فإني أنا زوجتك ، وهذه زوجة فلان ، قال : «فانصرف إلى أصحابه ، فأخبرهم ، فكتبوا وصاياهم ، فلم يكتب أحد وصيته إلا استشهد» .

وذكر ابن النحاس - رحمه الله - في المصارع عن أحمد بن جعفر اللبان . قال : (روي أنه كان بالبصرة نساء عابدات ، وكانت منهن أم إبراهيم الهاشمية ، فأغار العدو على ثغر من ثغور المسلمين ، فانتدب الناس للجهاد ، فقام عبدالواحد بن زيد البصري في الناس خطيباً فحضهم على الجهاد ، وكانت أم إبراهيم هذه حاضرة في

مجلسه ، وتمادى عبدالواحد على كلامه ثم وصف الحور العين ، وذكر ما قيل فيهن ، في صفة حوراء :

غـــــادة ذات دلال ومـــــرح
يجـد الناعت فيـها مـا اقـترح
خـلـقـت مـن كـل شـيء حـسـن
طيب فـالليت فـيـهـا مطرح
زانهـا الله بوجـه جـمـعـت
فـيـه أوصـاف غـريبـات الملح
وبعين كـحلهـا من غنجـهـا
وبخـد مـسكه فـيـه رشح
وهـي تـدعـوه بـود صـادق
مـلأ القـلب بـه حـتى طفح
يا حـبـيـبـاً لست أهوى غـيـره
بالخـواتيم يتم المفـتـتح
لا تـكـونـن كـمـن جـد إلى
منتـهى حـاجـتـه ثم جـمح
لا فـمـا يخطب مـثلي من سـهـا
إنما يـخـطـب مـثـلـي مـن ألـح

قال : فماج الناس بعضهم في بعض ، واضطرب المجلس فوثبت أم إبراهيم من

وسط الناس وقالت لعبدالواحد : يا أبا عبيد ألست تعرف ولدي إبراهيم ، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه على بناتهم ، وأنا أضن به عليهم ، فقد والله أعجبتني هذه الجارية ، وأنا أرضاها عرساً لولدي ، فكرر ما ذكرت من حسنها وجمالها ، فأخذ عبدالواحد في وصف حوراء ، ثم أنشد :

تولَّد نور النور من نور وجهها

فمازج طيب الطيب من خالص العطرِ

فلو وطئت بالنعل منها على الحصى

لأعشبت الأقطار من غير ما قطرِ

ولو شئت عقد الخصر منها عقدته

كغصن من الريحان ذي ورق خضرِ

ولو تفلت في البحر شهد رضابها

لطاب لأهل البر شرب من البحرِ

يكاد اختلاس اللحظ يجرح خدها

بجارح وهم القلب من خارج السرِ

فاضطرب الناس أكثر فوثبت أم إبراهيم ، وقالت لعبدالواحد : يا أبا عبيد قد والله أعجبتني هذه الجارية ، وأنا أرضاها عرساً لولدي فهل لك أن تزوجه منها وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار ، ويخرج معك في هذه الغزوة ، فلعل الله يرزقه الشهادة ، فيكون شفيعاً لي ولأبيه في القيامة؟ فقال لها عبدالواحد : لئن فعلت لتفوزن أنت وولدك وأبو ولدك فوزاً عظيماً ، ثم نادت ولدها : يا إبراهيم ! فوثب من وسط الناس ، وقال لها : لبيك يا أماه ، قالت : أي بني أرضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك في

سبيله وترك العود في الذنوب؟ فقال الفتى : أي والله يا أماه رضيت أيّ رضى ، فقالت : اللهم إني أشهدك أني زوجت ولدي هذا من هذه الجارية ببذل مهجته في سبيلك ، وترك العود في الذنوب فتقبله مني يا أرحم الراحمين ، قال : ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار ، وقالت : يا أبا عبيد ! هذا مهر الجارية تجهز به ، وجهز الغزاة في سبيل الله ، وانصرفت ، فابتاعت لولدها فرساً جيداً ، واستجادت له سلاحاً ، فلما خرج عبدالواحد ، خرج إبراهيم يعدو ، والقراء حوله يقرؤون : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ (التوبة : ١١١) .

قال : فلما أرادت فراق ولدها دفعت إليه كفناً وحنوطاً وقالت له : أي بني إذا أردت لقاء العدو فتكفن بهذا الكفن ، وتحنط بهذا الحنوط ، وإياك أن يراك الله مقصراً في سبيله ، ثم ضمته إلى صدرها ، وقبلت بين عينيه ، وقالت : يا بني ! لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات القيامة ، قال عبدالواحد : فلما بلغنا بلاد العدو ، ونودي في النفير وبرز الناس للقتال برز إبراهيم في المقدمة ، فَقَتَلَ من العدو خلقاً كثيراً ، ثم اجتمعوا عليه فَقُتِلْ ، قال عبدالواحد : فلما أردنا الرجوع إلى البصرة قلت لأصحابي : لا تخبروا أم إبراهيم بخبر ولدها حتى ألقاها بحسن العزاء لئلا تجزع فيذهب أجرها ، قال : فلما وصلنا البصرة خرج الناس يتلقوننا ، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج ، قال عبدالواحد : فلما بصرت بي قالت : يا أبا عبيد هل قبلت مني هديتي فأهنأ ، أم ردت علي فأعزَّى؟ فقلت لها : قد قبلت والله هديتك إن إبراهيم حي مع الأحياء يرزق ، قال : فخرت ساجدة لله شكراً ، وقالت : الحمد لله الذي لم يخيب ظني وتقبل نسكي مني ، وانصرفت ، فلما كان من الغد أتت إلى مسجد عبدالواحد ، فنادته : السلام عليك يا أبا عبيد ، بُشراك ، فقال : لازلت مبشراً بالخير ، فقالت له : رأيت البارحة ولدي إبراهيم في روضة حسناء ، وعليه قبة خضراء ، وهو على سرير من اللؤلؤ ، وعلى رأسه تاج وإكليل وهو يقول لي : يا أماه ، أبشري فقد قبل المهر ، وزفت العروس) انتهى .

يقول ابن القيم في طريق الهجرتين : (فالله سبحانه خلق عباده له ، ولهذا اشترى منهم أنفسهم ، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ ، ليسلموا إليه النفوس التي خلقها له .

وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له مصطفاة عنده ، مرضية لديه . وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها ، هذا إذا جهل قدرها في نفسها ، فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها ، وعرف الثمن المبذول فيها علم شأنها ومرتبتها في الوجود ، فالسلعة أنت والله المشتري والثمن جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام) .أهـ .

وقال رحمه الله في إغاثة اللهفان : (ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون ، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله ، وتلك أشرف الموتات وأسهلها ، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة ، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل ، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها ولكن الفارّ يظن أنه بفراره يطول عمره ، فيتمتع بالعيش ، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن ، حيث يقول : ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴿١٦﴾﴾ (الأحزاب) .

فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً ، إذ لا بد له من الموت ، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه .

ثم قال : ﴿**قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴿١٧﴾﴾ (الأحزاب) .

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله ، إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه ، فإنه من الموت لما كان يسوءه ، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم

يعصـمه أحد من الله ، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله ، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه .

وإذا كان هذا في مصيبة النفس ، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن ، فإن من يبخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته ، سلبه الله إياه ، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى ، بل فيما يعود عليه بمضراته عاجلاً وآجلاً ، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ، ونقله إلى غيره ، فيكون له مهنؤه وعلى مخلّفه وزره وكذلك من رفّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته ، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب) . انتهى

باب في ذكر ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من السعادة الأبدية والنعيم المقيم في جنات الخلود

يقول الله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ (آل عمران) . ويقول الله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد :١٥) . ويقول الله تعالى : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ (الزخرف) . ويقول الله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (السجدة) .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «قال الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ (السجدة :١٧) .

وروى ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي الحر قال : «شبع يحيى بن زكريا ليلة شبعة من خبز شعير فنام عن جزئه حتى أصبح ، فأوحى الله إليه : يا يحيى هل وجدت داراً خيراً لك من داري؟ أم جواراً خيراً لك من جواري؟ وعزتي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعه لذاب جسمك وذهبت نفسك اشتياقاً» .

وروى ابن ماجه عن أسامة بن زيد ، قال : قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه : «ألا مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل

كثيرة ، في مقام أبداً ، في حبرة ونضرة . في دور عالية سليمة بهية» قالوا : نحن المشمرون لها ، يا رسول الله قال : «قولوا : إن شاء الله» ثم ذكر الجهاد وحض عليه .

وروى أحمد والترمذي ـ عن أبي هريرة قال : قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها؟ قال «لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الإذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولايموت ، لاتبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه» .

وفي رواية «وحشيشها الزعفران» .

وروى البخاري ومسلم ـ كما في حديث الإسراء ـ الذي يرويه أنس بن مالك عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : «**ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى ، وغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك**» .

وروى مسلم عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ لابن صائد : «**ما تُربة الجنة**»؟ قال : درمكة بيضاء ، مسك ، يا أبا القاسم قال : «**صدقت**» .

وروى الترمذي عن حكيم بن معاوية ، عن أبيه ، عن النبي قال : «إن في الجنة بحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر اللبن ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد» .

وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ (محمد :١٥) .

وروى البخاري عند أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال : وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تُفجَّر أنهار الجنة**» .

وروى أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : «**الجنة مئة درجة ، ما بين كل درجتين مسيرة مئة عام ، وقال عفان : كما بين السماء إلى الأرض ـ**

والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش من فوقها ، وإذا سألتم الله تبارك وتعالى فاسألوه الفردوس الأعلى» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **«إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغُرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»** .

وفي هذا يقول المولى سبحانه : **﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۝٢٠﴾** (الرمز) .

وروى الترمذي ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **«إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغُرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»** .

وفي هذا يقول المولى سبحانه : **﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۝٢٠﴾** (الزمر) .

وروى الترمذي عن علي ، قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن في الجنة لغرفاً يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فقام إليه أعرابي ، فقال : لمن هي يا نبي الله؟ قال : هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام»** .

وروى البخاري ومسلم عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : **«إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون وجنتان من فضة ، آنيتهما وما فيها ، وجنتان من كذا ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا الكبر على وجهه في جنة عدن»** .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوّة الألنجوج عود الطيب ، وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء**» .

باب ماجاء في صفة عرائس الجنان الحور العين

يقول الله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾ (الطور) . وقال تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ (الواقعة) . وقال تعالى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ (الرحمن) . وقال سبحانه : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)﴾ (الرحمن) . وقال سبحانه : ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)﴾ (الصافات) . وقال عز وجل : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ (البقرة) .

روى الطبراني وابن جرير وابن مردويه عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿**وحور عين**﴾ قال : «حور بيض عين ضخام» شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت يا رسول الله ، فأخبرني عن قول الله عز وجل ﴿**كأنهن الياقوت والمرجان**﴾ ، قال : «صفاؤهن كصفاء الدر الذي في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي» . قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قوله ﴿**فيهن خيرات حسان**﴾ قال : «خيرات الأخلاق حسان الوجوه» ، قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قوله ﴿**كأنهن بيض مكنون**﴾ قال : «رقتهن كرقة الجلد التي في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقئ» .

وقيل : البيض حين يقشر قبل أن تمسه الأيدي .

وروى الترمذي عن عبدالله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : «**إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يُرى مخها ، وذلك بأن الله تعالى يقول : ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ، ثم استصفيته لأريته من ورائه**» .

وروى الطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن ابن مسعود قال : «إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم ومن تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء» .

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «**لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحاً ، ولنصيفُها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**» .

وروى أحمد في المسند ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : «**إن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأته ، فتضرب على منكبيه ، فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة ، وأن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه قال : فيرد السلام ، ويسألها من أنت؟ وتقول : أنا من المزيد ، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ، أدناها مثل النعمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب**» .

وروى ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : «إنه ليوجد ريح المرأة من الحور العين من مسيرة خمسين سنة» .

وروى أبو نعيم والحاكم عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**سطع نور في الجنة فرفعوا رؤوسهم ، فإذا هو من ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها**» .

يقول ابن القيم في «حادي الأرواح» : (فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها ، وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت : هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها ، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة . وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة) .أهـ .

وقال رحمه الله في النونية :

حُمر الخدود ثغورهن لآلئ
سود العيون فواتر الأجفانِ

والبرق يبدو حين يبسم ثغرها
فيضيء سقف القصر بالجدرانِ

ولقد روينا أن برقاً ساطعاً
يبدو فيسأل عنه من بجنانِ

فيقال هذا ضوء ثغر ضاحكٍ
في الجنة العليا كما تريانِ

وروى ابن أبي الدنيا وأبونعيم وأبوالشيخ وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ قال : «**لو أن حوراء بزقت ـ أو بصقت ـ في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها**» .

قال عبدالواحد بن زيد البصري :

ولو وطئت بالنعل منها على الحصى
لأعشبت الأقطار من غير ما قطرِ

ولو تفلت في البحر شَهْد رضابها
لطاب لأهل البر شرب من البحرِ

وروى ابن أبي الدنيا وأبونعيم وعبد بن حميد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «**ينظر إليها أربعين سنة لا يصرف بصره**» .

وروى الطبراني والبيهقي وأبونعيم وابن أبي حاتم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : «**خلق الله الحور العين من الزعفران**» .

وقد روى الحديث جمع من الصحابة والتابعين منهم أنس بن مالك وابن عباس وزيد بن أسلم ومجاهد وغيرهم . وروي مرفوعاً وموقوفاً .

وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن : «إن لولي الله في الجنة عروساً لم يلدها آدم ولا حواء ولكن خلقت من زعفران» .

يقول ابن القيم في حادي الأرواح : «وإذا كان هذه الخلقة الآدمية التي هي من أحسن الصور وأجملها مادتها من تراب وجاءت الصورة من أحسن الصور ، فما الظن بصورة مخلوقة من مادة الزعفران الذي هناك» .أهـ .

قلت : وكما أن الله تعالى قد أنشأ نساء الدنيا وخلقهن من تربة أرضها (الطين والتراب) فلا عجب في أن ينشأ الله عز وجل نساء الجنة ويخلقهن من تربة أرضها الطيبة (المسك والزعفران) . فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال عن الجنة «حصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران» رواه أحمد الترمذي .

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لابن صائد : «ما تربة الجنة؟ قال : درمكة بيضاء مسك يا أبا القاسم . قال ﷺ : صدقت» .

وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال : «إن الله لم يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران» .

وذكر القرطبي في التذكرة . قال : (وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : «سألت جبريل عليه السلام فقلت : أخبرني كيف يخلق الله الحور العين؟ فقال لي : يا محمد يخلقهن الله من قضبان العنبر والزعفران مضروبات عليهن الخيام أول ما يخلق الله منهن نهداً من مسك أذفر أبيض عليه يلتئم البدن» .

وقال الله تعالى في صفتهن : ﴿**وكواعب أتراباً**﴾ (النبأ :٣٣) .

والكواعب : جمع كاعب . قال ابن عباس وجمهور أهل التفسير : الكاعب : الناهد .

وقال الكلبي : هن المفلّكات اللواتي تكعبت ثديّهن وتفلكت .

وقال القيم : المراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل .

وقال :

لـكـنـهـن كـواعـب ونـواهـدٌ

فـشـديّهن كـألطف الرمـانِ

وقيل أيضاً :

فلو رأت عـيناك إقـبـالهـا

وقـد بـدت رُمَّـانـتـا صـدرها

وهـي تـتـمـاشى بـين أتـرابهـا

وعـقـدها يشـرق في نحـرها

لهـان في نـفـسـك هذا الـذي

تـراه فـي دنـيـاك مـن زهـرها

وروى البيهقي في البعث عن أبي أمامة الباهلي ، أن رسول الله ﷺ قال : «**ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيان بأحسن صوت يسمعه الإنس والجن ، وليس بمزمار الشيطان**» .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وهناد بن السري في الزهد والنسائي أنه جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ قال : «**يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ فقال : والذي نفسي بيده إن الرجل ليؤتى قوة مائة رجل منكم ، في الأكل ، والشرب ، والجماع ، والشهوة ، قال : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة ، والجنة طاهرة ليس فيها قذر ولا أذى فقال رسول الله ﷺ : حاجتهم عرق يفيض مثل ريح مسك ، فإذا كان ذلك ضمر له بطنه**» .

وروى الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال : «**يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع ، قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك؟ قال : يُعطى قوة مائة**» .

وروى أبو يعلى والبزار والطبراني عن ابن عباس قال : قيل : «يا رسول الله أنفضي إلى نسائنا في الجنة كما نفضي إليهن في الدنيا؟ قال : «والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليفضي بالغداة الواحدة إلى مائة عذراء» .

وروى ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : «وإن شهوته لتجري في جسدها سبعين عاماً يجد اللذة» .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ** ﴿٥٥﴾﴾ (يس) . قال : «في افتضاض الأبكار» .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ** ﴿٥٥﴾﴾ (يس) ، قال : «شغلهم افتضاض العذارى» .

وأخرج البزار والطبراني في الصغير وأبو الشيخ في العظمة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكاراً» .

قال ا بن القيم :

وإذا يُجامعها تعود كما أتت

بكراً بغير دم ولا نقصانِ

فهو الشهي وعضوه لا ينثني

جاء الحديث بذا بلا نكرانِ

ولقد روينا أن شغلهم الذي

قد جاء في يس دون بيانِ

شغل العروس بعرسه من بعدما
عبثت به الأشواق طولَ زمانِ

أتلومه إن صار ذا شغلٍ به
لا والذي أعطى بلا حسبانِ

يا رب غفراً قد طغت أقلامنا
يا رب معذرة من الطغيانِ

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : «**إن في الجنة لسوقاً ، يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً**» .

يقول ابن القيم في حادي الأرواح : (وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب ، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود ، وللرمان ما تضمنته النهود ، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور ، وللدقة واللطافة ما دارت عليه الخصور ، تجري الشمس في محاسن وجهها إذا برزت ، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت .

إذا قابلت حِبّها فقل ما شئت في تقابل النيِّرين ، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبّين ، وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين ، يرى وجهه في صحن خدها كما يرى في المرآة التي جلاها صيقلها ، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها ، لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحاً ، ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً ، ولتزخرف لها ما بين الخافقين ، ولأغمضت عن غيرها كل عين ، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء

النجوم ، ولآمن من على وجهها بالله الحي القيوم ، ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ، ووصاله أشهى إليه من جميع أمانيها ، لا تزداد على تطاول الأحقاب إلا حسناً وجمالاً ، ولا يزداد لها على طول المدى إلا محبة ووصالاً ، مبرأة من الحبل والولادة والحيض والنفاس ، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس ، لا يفنى شبابها ، ولا تبلى ثيابها ، ولا يخلق ثوب جمالها ، ولا يمل طيب وصالها ، قد قصرت طرفها على زوجها فلا تطمح لأحد سواه ، وقصر طرفه عليها فهي غاية أمنيته وهواه ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته ، فهو معها في غاية الأماني والأمان . هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جان ، كلما نظر إليها ملأت قلبه سروراً ، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤاً منظوماً ومنثوراً ، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نوراً .

وإن سألت عن السن فأتراب في أعدل سن الشباب .

وإن سألت عن الحُسن فهل رأيت الشمس والقمر .

وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد في أصفى بياض في أحسن حور .

وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان .

وإن سألت عن النهود فهن الكواعب ، نهودهن كألطف الرمان .

وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان .

وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان فأعطين جمال الباطن والظاهر ، فهن أفراح النفوس وقُرَّة النواظر .

وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنالك فهن العُرب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التي تمتزج بالزوج أي امتزاج .

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها ، وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت : هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها ، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة ، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة .

وحـــديثـــهـــا الـــســـحـــر الحـــلال لو أنه

لـم يجـن قـــتـل المسلـم المتــحـــرز

إن طـال لـم يمـلـل وإن هـي حـــدَّثـت

وَدَّ المحــــدّث أنـهـــا لـم تـوجـــز

وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع ، وإن آنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع ، وإن قَبَّلت فلا شيء أشهى إليه من ذلك التقبيل ، وإن نولت فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل) .أهـ .

وقد قالوا فيها :

يـا خـــاطـب الحـــور في خـــدرها

وطـالـبـــاً ذاك عـلـى قـــدرهـا

انـهـض بـجـــد لا تـكـن وانـيـــاً

وجـــاهد الـنـفـس على صـــبـــرهـا

وجـــانـب الـنـاس وارفــضــهـم

وحـــالف الـوحـــدة في ذكـــرهـا

وقـم إذا الـلـيـل بـدا وجــــهـــه

وصـم نـهـــاراً فـــهـــو من مـــهـــرهـا

فـلـو رأت عـــيـناك إقـــبـــالـهـــا

وقـــد بـدت رُمَّـــانـتـــا صـــدرهـا

وهـي تمـاشـي بـين أتـرابـهـــا

وعـــقـــدهـا يشـــرق فـي نـحـــرهـا

لـهـــان فـي نـفــــسك هـذا الـذي

تـراه فـي دنـيـــاك مـن زهـرهـا

باب ما جاء في ذكر أعظم نعيم أهل الجنة وهو رؤيتهم لربهم جل وعلا ورضوانه سبحانه عليهم

يقول الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ (القيامة) . ويقول الله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس : ٢٦) . ويقول الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾ (التوبة) .

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ، أن النبي ﷺ قال : «إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى؟ يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني . فلا أسخط عليكم بعده أبداً» .

يقول ابن القيم : (رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ، لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه . قال الله تعالى : ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ بعد قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾ (التوبة) .أهـ .

وروى البخاري ومسلم عن قيس بن أبي حازم . قال : سمعت جرير بن عبدالله ، وهو يقول : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ : إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر . لا تضامون في رؤيته . فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني العصر والفجر ثم قرأ جرير : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طه) .

وروى مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال : «**إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب . فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**» .

وفي رواية أحمد : (ثم تلا قوله تعالى : ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ (يونس : ٢٦) .

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله عز وجل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني والبيهقي في كتاب الرؤية عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ (يونس : ٢٦) ، قال : («الذين أحسنوا» أهل التوحيد ، «والحسنى» الجنة ، «والزيادة» النظر إلى وجه الله) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «**إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي : يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن**» .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه - يرفعه - في قوله تعالى : ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ قال : «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة» .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾**﴾ (القيامة : ٢٢) ، قال : ناعمة .

وأخرج ابن المنذر والآجري عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾**﴾ قال : (نضَّر الله تلك الوجوه وحسَّنها للنظر إليه) .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾**﴾ قال : النضارة البياض والصفاء : ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾**﴾ قال : ناظرة إلى وجه الله) .

وأخرج الدارقطني والآجري واللالكائي والبيهقي عن الحسن في الآية قال : (النضرة : الحُسن ، نظرت إلى ربها فنضرت بنوره) .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن أدنى أهل الجنة منزلاً لمن ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسروره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية**» ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** (٢٢)﴾ قال : «البياض والصفاء ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** (٢٣)﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله» .

وروى ابن حبان والنسائي في الحديث الذي يرويه عمار بن ياسر في دعائه ﷺ : «**وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زيّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُداة مهتدين**» .

يقول ابن القيم في المدارج : (الجنة ليس اسماً لمجرد الأشجار والفواكه ، والطعام والشراب ، والحور العين ، والأنهار والقصور ، وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة . فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل . ومن أعظم نعيم الجنة : التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه . فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً ـ فأيسر يسير من رضوانه : أكبر من الجنان وما فيها من ذلك . كما قال تعالى : ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ وأتى به منكراً في سياق الإثبات . أي أيَّ شيء كان من رضاه عن عبده : فهو أكبر من الجنة .

قليل منك يقنعني ولكن

قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح ـ حديث الرؤية ـ «**فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم**

من النظر إلى وجهه» وفي حديث آخر : أنه سبحانه إذا تجلى لهم . ورأوا وجهه عياناً : نسوا ما هم فيه من النعيم ، وذهلوا عنه ، ولم يلتفتوا إليه ، ولا ريب أن الأمر هكذا . وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال . ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة . فإن المرء مع من أحب . ولا تخصيص في هذا الحكم . بل هو ثابت شاهداً وغائباً .

فأي نعيم ، وأي لذة ، وأي قرة عين ، وأي فوز يُداني نعيم تلك المعية ولذتها ، وقرة العين بها؟ !

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب ، الذي لا شيء أجل منه ، ولا أكمل ولا أجمل : قرة عين ألبتة؟ »أهـ .

الفهرس

المقدمة ٣
باب ما جاء في فضل العلم بالله ودينه ٤
باب ما جاء في قوله تعالى ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ . ١٧
باب ما جاء في قوله تعالى : ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدى﴾ ١٨
باب ما جاء في التفكر وقوله عز وجل : ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ ٢٤
باب ما جاء في قوله تعالى : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ ٢٨
باب ما جاء في اليقين بالله عز وجل ودينه وقوله ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ٣٣
باب ما جاء في قعود الشيطان لابن آدم في طريق الإيمان وقوله ﷺ : «إن الشيطان قَعَدَ لابن آدم بأطرقه» ٣٩
باب قوله تعالى في الحديث القدسي «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» ٤٧
باب من جاء في تعظيم الله جل وعلا ٥٠
باب ما جاء في إخلاص الدين لله سبحانه ٥٥
باب ماجاء في التوكل على الله عز وجل ٦٢
باب ما جاء في الخشوع لله جل وعلا (وقوله تعالى : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ ٧٠
باب ما جاء في الخشوع في الصلاة ٧٥
باب ما جاء في خشية الله عز وجل وقوله سبحانه : ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ ٨١
باب ما جاء في البكاء من خشية الله تعالى ٨٦

باب ما جاء في حسن الظن بالله تعالى ورجاء رحمته وقوله تعالى في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي» ١٠١
باب ما جاء في محبة الله سبحانه وقوله تعالى : ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ ١٠٧
باب ما جاء في تودد الرب عز وجل لعبده المؤمن ومحبته له وقوله سبحانه : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ ١١٣
باب ما جاء في الصبر على أمر الله وأقدار الله وترك محارم الله وقوله تعالى : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ ١١٦
باب ما جاء في مراقبة الله عز وجل وحفظ أوامره ١٣٤
باب ما جاء في اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ١٣٧
باب ما جاء في غض البصر وما يورثه الله عزوجل بسببه من النور في قلب المؤمن ١٤٢
باب ما جاء في ذكر الله سبحانه وقوله سبحانه في الحديث القدسي : «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» ١٤٨
باب ما جاء في قرب الله عز وجل من عبده المؤمن ١٥٢
باب ما جاء في الصدق مع الله عز وجل وقوله سبحانه : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ١٥٦
باب ما جاء في الفرح بالله سبحانه ودينه وقوله سبحانه : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ ١٥٩
باب ما جاء في حلاوة الإيمان وهداية القلوب وطمئنينتها وقوله سبحانه : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ . . . ١٦٥
باب من جاء في كفاية الرب عز وجل لعبده المؤمن ونصرته له وقوله ﴿إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ ١٧٥

باب ما جاء في النهي عن تزكية النفس وقوله ﷺ: «لن ينجو أحد منكم بعمله» ١٨٧
باب ما جاء في قوله تعالى ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ وقوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ ١٩٣
باب ما جاء في صفة العبد المؤمن وقوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون في الأرض هوناً﴾ ١٩٨
باب ما جاء في الفتن وعرضها على القلوب ٢٠٧
باب ما جاء في الفرار من الفتن واعتزال أهل الشرك وقوله ﷺ «الهجرة هجرتان» ٢١٠
باب ما جاء في نصرة الدين والتضحية في سبيل الله عز وجل ٢١٣
باب ما جاء في فضل الجهاد في سبيل الله وما أعده الله تعالى لأهله من الدرجات والمقامات العالية ٢١٨
باب ما جاء في تثبيت الملائكة لأهل الإيمان في مواطن الجهاد وقوله سبحانه: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ ٢٢٣
باب ما جاء في ما يناله الشهيد في سبيل الله من عظيم الجزاء والكرامة وقوله سبحانه: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ ٢٢٨
باب في ذكر ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من السعادة الأبدية والنعيم المقيم في جنات الخلود ٢٣٧
باب ماجاء في صفة عرائس الجنان الحور العين ٢٤١
باب ما جاء في ذكر أعظم نعيم أهل الجنة وهو رؤيتهم لربهم جل وعلا ورضوانه سبحانه عليهم ٢٥٠
الفهرس ٢٥٤